بيار رُوفايل

سِرُّ الرّاهِبة

تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية

دار الجيل
بيروت

سرّ الراهبة

قصة الصراع بين الخير والشر.

قصة الالم والدمع والشوق والحنين.

قصة الحب الطاهر المقدس الشريف.

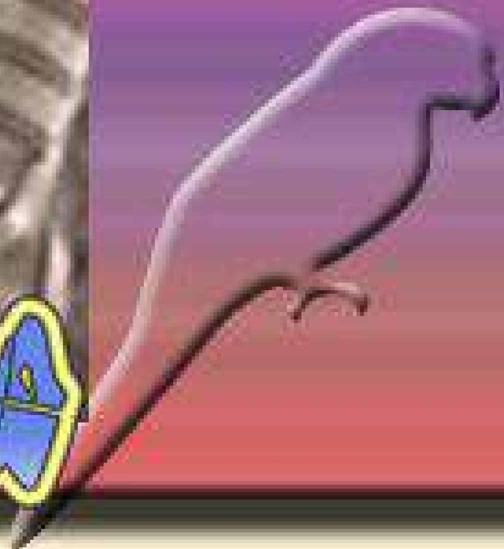
قصة سر الراهبة. كتبها القاص المعروف الاستاذ بيار روفايل باسلوبه الرشيق، واعتمد فيها اسلوباً جديداً في فلسفة الحياة.

راهبة جاءت تنزوي في دير بعيد على قمة جبل اخضر اشمّ تبكي ماضيها الغاشم الرهيب وتكفر عن خطاياها وآثامها. في قلب تلك الراهبة سرّ مخيف.

تليجرام



هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون





بسم الله الرحمن الرحيم

بيار روفايل

سِرُّ الرَّاهِبَة



دار الجيل
بيروت

الطبعة الخامسة

١٩٩٥



مقدّمة

سر الراهبة ... قصة الخير والشر .

قصة الألم والدمع والشوق والحنين .

قصة الحب الطاهر المقدس الشريف .

قصة الروح التي تنغمس في الظـلام الدامس القاتم السواد .

تتدلى أسدل .

ثم ترى النـور ، وتسير في الطريق الطويل البعيد نحو الأعالي ..

قصة « سر الراهبة » كتبها القاص المعروف الاستاذ بيار روفايل صاحب مجـلة « نصف الليل » القصصية بأسلوبه الرشيق .

واعتمد فيها أسلوباً جديداً في فلسفة الحياة .

إنها قصة راهبة كانت تعيش في بؤرة الفساد قبل أن يهديها الحب المقدس الى السماء .

لم تكن « رفقة » المرأة الشريرة تعرف ما هي السماء ، الى ان تعرفت الى الحب الروحي الخالد

وأصبحت المرأة الشريرة الفاسقة راهبة تنزوي في دير بعيد ، ينتصب على قمة جبل أخضر أشم ، تبكي ماضيها القاتم الرهيب وتكفر عن خطاياها وآثامها .

في قلب تلك الراهبة سر مخيف ... حرصت عليه حرصها على روحها .

وكان لا بد للسر من إفشاء .

وفي هذه القصة يفشي المؤلف بيار روفايل « سر الراهبة » ويضعه أمام قرائه

قصة « سر الراهبة » قصة النور والظلام .

قصة الروح والجسد .

وها نحن نضع « الطبعة الخامسة » من هذه القصة بين أيدي قرائنا ، بعد ان نفدت الطبعات الأربع من المكتبات آملين ان تنال رضاكم .

والله ولي التوفيق .

تمهيد

الليل مكفهر عبوس ،

والغمامة الدكناء تنتشر في الفضـــاء الرحيب باسطـة على سواد الليل البهيم وشاحهـــا القاتم ، وساكبة على الطبيعة ، الثرثارة المجنونة ، الناطقـــة بألف لسان ولسان ، وبألف لغة ولغة ،أسرارهــا الغامضة الرهيبـة ، وأمطارها الغزيرة المدرار .

والعاصفة هوجاء صاخبة ، تعصف بأغصان السنديان والعفص والشربين فتتمايل الأغصان بين يديها ، كما تتمايل الحسناء بين ذراعي العاشق الحبيب .

والسيول جارفة ، تجتاح كل ما يقع أمامها في اندفاعهـــا المجنون من أعالي الجبال إلى الوديان في طريقها الى البحر الواسع البعيد الفسيح الأرجاء ،

والجبال تنتصب في لبنان على رهبة وقوة وخشوع في وجه العاصفة الغضوب ، تصد بهاماتها الرياح ، وتهزأ بعويلها وأنينها واندفاعها الصاخب الهادئ التوائق .

وآوت الذئاب وبنات آوى الى أوكارها ترقب انحباس المطر المنهمر دون انقطاع لتخرج الى الاحراج والى المنازل الصغيرة والأكواخ المتواضعة باحثة عن صيد تسد به الرمق .

وطال انتظارها ، فراحت ترسل عواءهـا أشبه بالأنين ، فيزيد في كآبة العاصفة وعويل الرياح وعربدة السيول .

وترد عليها الكلاب نباحاً . كأنها تهددها بالدمار .

إلا ان نباح الكلاب ما كان إلا ليزيد الثعالب والذئاب رغبة في العواء .

وهناك في أعالي جبال الشمال ،

تحت أقدام أرز الرب الخالد ،

على قمة جبل شامخ متمرد رهيب ،

وسط غابة من السنديان ، كثيفة الاغصان ، وارفة الظلال يجثم دير الراهبات .

انه دير كبير ، فسيح ، رحيب الجنبات ، يضم بعض النساء الراغبات في الانقطاع عن ملذات الحياة وأفراحهـا ومباهجها العِذاب ، لينصرفن بقلوبهن وأرواحهن وأجسادهن

الى عبادة الخالق.

فكأنهن يردن التكفير عن خطايا البشر جمعاء .

وكن في صلاتهن الدائمة رائعات .

فهن ما عرفن الى ملذات الحياة طريقاً .

وما سلكن سبل التنعم بالخيرات وإغراق الجسد الفاني بالسعادة والراحة والهناء .

انهن على عمل متواصل وصلاة دائمة .

وإذا قدر لهن أن ينعمن بالراحة قليلاً في ديرهن الهادىء الساكن الهاجع في أحضان الطبيعة الفاتنة ، جلسن قرب الموقد يروين قصص القديسين وأخبار الأنبياء والرسل الابرار .

وتلك الليلة ، الليلة الحالكة السواد ، المطرة ، العاصفة ، الصاخبة المجنونة ، أنهت الراهبات صلاتهن ، وجلسن قرب الموقد المضطرم النار يروين القصص الروحية والاخبار المقدسة .

والكل التف حول الموقد يصطلي بناره ، ويقهر بها البرد القارس اللاذع القوي .

الكل إلا الراهبة رفقة ، تلك الراهبة الدارجة في الستين من العمر على تقى وورع وصلاة .

والراهبة رفقة كانت تقضي ليلها بالصلاة .

وصلاتها تختلف عن صلاة رفيقاتها الراهبات ، فهي ، وان

تكن تشترك معهن في الصلاة المفروضة عليهن في ذلك الدير الموحش الكئيب ، تنصرف بعد الصلاة إلى التفكير العميق ، البعيد ، السحيق ، المجهول القرار .

وتغرق رفقة الراهبة في تفكيرها .

أنها لتفكر بأشياء غامضة واهية خرساء .

وكل ما حولها أخرس أعمى أصم . لا ينطق بشيء ولا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً .

وتحاول الراهبة خرق حجب هذه الأسرار العميقة الغور .

إلا انها تصطدم بذلك الحاجز المتين الحاجب عنها كنه الحقيقة الناصعة ، حقيقة الموت والحياة .

وكثيراً كثيراً ما تنسكب دموع الراهبة رفقة على خديها وهي تغرق في التفكير السحيق .

وتحاول رفيقاتها الوثوب إلى أعماق تفكيرها ، ورفع الستار عن أسرار رفقة ، عن دافع دمعها إلى الانحدار ، وروحها الى الانطلاق نحو الوجوم والأسى والتفكير .

إلا انهن يعجزن عن انتزاع السر من شفتي رفيقتهن الورعة ، فيحترمن صمتها ويخشعن حيال تفكيرها العميق .

وكانت رفقة تحتفظ برسم شاب وسيم جميل تائه النظرات .

وكثيراً كثيراً ما حاولت الراهبـات معرفة اسم ذلك الشاب ، وصلته برفيقتهن .

الا ان رفقة كانت تضن عليهن بمعرفة الحقيقة .

فهي تريد أن تستأثر بأسرارها وتحتـفظ بآلامها في أعمق أعماق روحها الطاهرة ، الناصعة البياض .

وتلك الليلة .

فيما الراهبات يجلسن حول الموقد يصطلين بناره .

جلست الراهبة رفقة على طنفسة من صوف وانتزعت من صدرها ذلك الرسم ، رسم الشاب الوسيم ، وراحت تحـدق بالرسم وتغرق في التفكير .

ولم يلبث تفكيرها السحيق ان انفجر دموعاً في عينيها .

وبدأت الدموع تنسكب على خديها السمراوين .

واذا بها تجهش بالبكاء والنحيب وتسرف في سكب الدموع .

ولفت بكاؤها الراهبات المصطليات باللهيب المتصاعدة ألسنته من الموقد كالحراب الحمراء الحادة النصال .

وتساءلن : ما بال الرفيقة رفقة تجهش بالبكاء ؟

وقلبن الشفاه .

ليس ثمة من يدري .

ووجهت الراهبـات السؤال الى رفيقتهـن الراهبـة « شمونة » ، وهي كبيرات الراهبـات سناً ، وأشدهن صداقة

للراهبة رفقة : ما بال الراهبة رفقة تمعن في سكب الدموع ، يا أختاه يا شمونة ؟

وقالت شمونة :

ـ لست أدري ، لقد مضى عليها ثلاثون سنة في هذا الدير وهي على هذه الحال . كل ليلة ، عندما نجلس للتسلية بعد الصلاة تنزوي الأخت رفقة حاملة هذا الرسم وتسبح في يمّ من الدموع .

وتساءلت الراهبة سارة :

ـ ولكن ما هي قصتها ؟ ولماذا تهيم أبداً بالنحيب وبالبكاء ؟

وعادت الراهبات الى قلب الشفاه :

ـ لسنا ندري ، لسنا ندري .

وقالت راحيل :

ـ هيا بنا نسألها علّها تقص قصتها علينا . يجب ان نعرف سرها الدفين ، لعلنا نخفف عنها عبء الآلام وثقل الهموم والدموع .

قالت شمونة :

ـ لن تجيب طلبنا . أنا أعرف رفقة حق المعرفة . انها لتهيم أبداً بالصمت العميق ، فهي تريد أن تطبق قلبها على همومها لئلا تتصاعد تلك الهموم ناراً محرقة تكوي فؤادها وتذيبه بلهيبه الوثاب .

فعادت راحيل الى الكلام لتقول :
سنلح عليها في الطلب ، هذه اختنا وعلينا أن نشاركها احزانها وأوهامها ودموعها .
إلا إن شمونة مانعت في الأمر ، وخالفت الرأي :
ـ لا ، لا ، دعوها تذرف الدموع ، علّ دموعها تطفىء نار قلبها المضطرمة كاضطرام لهيب هذا الموقد المحموم .
وأصرت راحيل على التخفيف عن عاتق الرفيقـة الحزينة .
ونهضت سائرة نحو رفقة ، داعية رفيقاتهـا الراهبات الى اللحاق بها .
وسرن الى رفيقتهن .
وكانت رفقة قد بدأت تمسح دموعها بنديلهـــا الأسود ، فاقتربن منها على حذر واحترام .
وصمتن ، وقد اقتربن منها .
ورفعت الراهبة نظرها الى رفيقاتها ، وكأنها تسألهن:مـا يكن يا رفيقاتي ؟
وأمسكت راحيل بيد أختها وتمتمت :
ـ رفقة ... رفقة ... ما بك يا رفقة ؟ لماذا تبكين ؟
وأرسلت الراهبة رفقة زفرة ملتهبة محرقة ، وتمتمت :
ـ دعيني ، دعيني يا راحيل
وشجعت كلمات راحيل رفيقتها الراهبة سارة ، فتقدمت من رفقة تقول بحنان :
ـ لا ، لا ، لن ندعك يا اختنا رفقة ، نريد أن نعلم سبب

بكائك ونحيبك .

وقالت شمونة :

- علنا نؤاسيك ونخفف عنك مصابك الأليم يا اختنا .

وعادت رفقة الى إرسال الزفرات الملتهبة .

وقالت : مصابي ؟ . لا ؛ لا ، سأحمل مصـــابي وحدي على عاتقي وسأسير به وحدي في طريق الحيـــاة الرهيب المرعب البعيـــد الى المنتهى . ليس ثمة من يستطيع أن يحمل مصائب الآخرين على هذه الارض يا رفيقاتي . لكل مصابه ولكل آلامه ولكل دموعه على هذه الأرض ، لكل دموعه .

وتمتمت شمونة :

- لا يا رفقة ، على الانسان أن يشارك رفيقه آلامه ودموعه فيخفف عنه عبء الآلام ومرارة الدمع ، أطلعينا على سرك يا اختنا فنساعدك على المسير في طريق الآلام وفي اجتيـاز بحار الدموع الواسعة الأرجاء .

وقالت راحيل :

- نحن نريد أن نمزج دمعنا بدموعك يا رفقة نريد مشاطرتك الألم .

وتمتمت رفقة :

- ما أجمل الدمع الممزوج بالدمع ، والألم الذي يختلط بالألم . إلا ان مصابي نار وحمم يحتاج الى دموع غزيرة ، غزيرة جداً ، يحتاج الى دموع مسلوخة عن القلب منتزعة عن الروح .

فأمسكت شمونة بيد رفقة وقالت :

– تعالي تعالي يا رفقة نجلس قرب الموقد، فالبرد قارس ، والعاصفة هوجاء ، والصقيع يغمر هذه البقاع الماجفة في أحضان الليل البهيم .

وتمتمت رفقة :

– دعيني يا شمونة دعيني ، لماذا تريدين أن تحملي الي ذكريات الماضي البعيد ؟ لماذا تريدين ان ترجعي بروحي الى ذلك الزمن السحيق المدى ، المغمور برماد السنين وضباب الايام ، دعيني دعيني .

إلا ان شمونة ورفيقاتها لم يدعنها .

فأمسكن بيدها .

وتقدمنها الى الموقد .

وجلسن حوله .

وأجلسن رفيقتهن رفقة قربهن .

ورحن يصغين الى كلماتها المغمورة بالشوق ، والحب ، والحنان ، والحنين .

وبدأت الراهبة رفقة تروي قصتها لرفيقاتها ، قالت :

الفصل الاول

«كان ذلك عام ١٩٢٠ عندما كان الشاب بهاء .. »

وأغمضت الراهبة رفقة عينيها وصمتت .

و كأنها تستعيد في ذاكرتها صورة الشاب بهاء .

وكانت الدموع قد عادت الى الانسكاب على خديها فمسحتها بمنديلها وأكملت .

« كان ذلك عام ١٩٢٠ عندما كان بهاء ، بهاء العواد ، يعيش في كوخ متواضع كئيب كسير الجناح خلع عليـــه الفقر المدقع وشاحاً كثيفاً من ظلامه ، وغمرته الفاقة بجناحيهـا فهدأ تحتهما على ذل وبؤس وانكسار .

وبهاء العواد كان فقيراً ، فقيراً جداً ، فقيراً إلى أبعد حدود الفقر البعيد السحيق . لم يكن يملك ثمن رغيف يسد به رمقه ، ولا ثمن ثوب يرد عن جسده النحيل البرد القارس العاصف في جبال لبنان الشماء ، وبالرغم من فقره الشديد فقد كان دائم الابتسام ، لا

يفكر بسوى حياته الثانيـة ، تلك الحياة المجهولة التي يعمـل الانسان طيلة حياته هنا على هذه الارض في سبيل الوصول إليها. لقد كان بهاء العواد يعيش بروحه ولروحه لا لجسده ولا بجسده ، وكان يقضي أكثر أوقاته بالصلاة ، أما ما بقي من هذه الاوقات فهو يقضيه في العمل ...

لم يكن بهاء العواد عاملاً في حقل ، ولا صناعياً في مصنع ولا موظفاً في شركة ، ولا تاجراً في متجر .

لقد كان شاعراً بعيد الحس عميق الشعور مرهف الاحساس، كان يصور اختلاجات روحه بقلمـه السيال ، ويرسم أفكاره البعيدة المدى على أوراقه ، ثم يعود ليلنشق منها شذا الحيـاة النابضة ابداً بالحب وبالجمال .

ولم يكن شعر بهاء ليرد عنه شبح الجوع الواقف أبداً في بابه على تشاؤم وإنذار ، ولم تكن قصائده الطويلة العصماء لتبعد عنه الفاقة والبؤس ، وكان عليه أن يتخلى عن شعره أو عن يسره ، فاختار الشعر والفقر وتخلى عن اليسر والمال .

وهناك في ضواحي العاصمة اللبنانية الصاخبة الهائمة المتمردة المجنونة كان يجثم كوخ بهاء العواد .

وكان ثمة قرب كوخه قصر شامخ ، تزينه النفائس والروائع والتحف الثمينة الغالية .

وكان كوخ بهاء العواد حيال القصر كالخادم الوضيع الذليل أمام السيد الجبار .



ولم تكن عينا بهاء لترتفــع الى القصر ، إلا ان الذين في القصر كانوا يطلون كل يوم على هذا الشاعر البائس الفقير ليشاهدوه في جلسته إلى طاولته المحطمة العرجاء مكباً على أوراقه البيضــاء يسوّد وجهها بقلمه السيال.

ومن كان يقيم في القصر الشامخ المنيف ؟

كان هناك رجل غني ، غني جداً ، وكريمته الحسناء الدارجة في العشرين من العمر على تيه وحسن وفتنة وجمال .

وبدا من الفتاة الحسناء سلمى العبود انها تهيم بجارها الشاعر الموهوب بهاء العواد .

فهي لا تبرح النافذة المطلة على كوخ بهاء .

وتجلس سلمى الى النافذة تمتع نظرها بمرأى وجــه بهاء وقد تيمها الحب العنيف وغمر قلبهـــا الحنون النابض أبداً بالهوى، المغمور دائماً بالحب والغرام

وطال جلوس سلمى الى النافذة.

وعزمت على الوثوب الى قلب الشاعر الحبيب .

وأيقنت ان احتلال قلب بهاء ميسور لديها .

ولماذا لا يكون ميسوراً ، وهي على قمــة الغنى الفضفاض الرحيب ، وهو في قعر وادي الفقر المذيب ؟

وراحت ترقب الفرص السانحــــة للوثوب الى ذلك القلب لعامر بالمحبة والنزول فيه على الرحب والسعة .

وأي فتاة لا تنقاد الفرص سانحة صاغرة اليها عندما تريد ؟

اي فتاة لا تصل الى أهدافها اذا ما تطاولت الى تلك الأهداف بصبر وحكمة واعتدال ؟

وسلمى كانت قد استمعت الى كثير من شعر جارها بهاء العواد .

وكانت قد تذوقت شعوره في شعره ، وحنينه في حنانه ، وأهواءه في هواه .

وأحبت فيه تلك الروح الشاعرة الهائمة في الفضاء على شموز رحيب وأمل بعيد واسع الأرجاء .

وما كان شعره المتدفق حناناً ورقة ولهيباً إلا ليزيد سلمى العبود تعلقاً بالجار العزيز .

واستطاعت سلمى ان تثب الى دار بهاء .

الى داره ؟ . . لا ، الى كوخه المتواضع الحقير القائم قرب قصر أبيها على ذل وانكسار .

وكانت تجلس اليه مستمعة الى قصائده الرائعة .

واستطاعت أن تحمل بهاء على نظم بعض القصائد فيها ، وهي الفتاة الجميلة الفاتنة الحسناء .

والشعراء يهيمون أبداً بالحسن والجمال .

وانهم ليزيدون في شعرهم الجمال جمالاً والحسن رونقاً وبهاء .

وبدأت الصداقة المتينة تنسج خيوطها الدقيقة المتينة حول القلبين ، قلب سلمى وقلب بهاء .

وكانت سلمى تجد في بهاء العواد آمالها الوارفة وأحلامها

الندية العذاب .

أما بهاء فكان يرى فيها الصديقة المخلصة الوفية .

ويوم جاءته طالبة اليه أن يقرر مصيرهما، أن يبسط لها رأيه في الزواج نظر الى الافق البعيد وتمتم : كل ما تخبئه لنا الأقدار حسن في عيني . ما دمت لا أستطيع أن أجعل من الظلام نوراً فانني سأظل أرى الجمال في الظلام ريثما يفتح النور عينيّ على الجمال ، وما دمت لا أستطيع أن أحلّق في الفضاء فأنا ما زلت أرى الحرية في الأنجذاب الى الارض ريثما تطلق الأرض قدمي الى الفضاء . وما دمت لا أتمكن من تذوق لذة الموت فأنا سأظل أكتوي بمرارة الحياة وأخالها الشهد ، الى أن تغمر حلاوة الموت شفتي .

قالت : والزواج ماذا تقول فيه ؟

قال : أقول ان كل ما ترسمه لنا الأقدار من ولادة وزواج وموت حسن في عيني .

وصفقت سلمى طرباً ، بهاء لا يمانع في الزواج منها ، ستكون له ، ستعيش معه في دار واحدة ترفرف عليها السعادة بأجنحتها وتغمرهما بأنوارها الساطعة البهية .

ولكن هناك والدها ، والدها لن يوافق على زواجها من هذا الشاعر البائس الفقير .

ما العمل ؟

وانصرفت سلمى الى التفكير .

انها لتفكر في الطريق الذي يوصلها الى اقناع والدها .

عليها ان تحارب على جبهتين لتصل الى النصر المبين ، جبهة انتشال بهاء من الوهدة التي يعيش فيها ودفعه الى العمل ليصل الى المال ، وجبهة إقناع الوالد الكريم بالموافقة على زواجهما .

وراحت تمهد الطريق .

وشهرت الحرب في الجبهة الاولى ، فشخصت ذات صباح الى كوخ بهاء وقلبها عامر بالآمال والاحلام الندية الخضراء .

وكان بهاء كعادته ، جالساً ينظم قصيدة عصماء .

ووثبت اليه على ابتسامة طافحة بالبشرى تقول :

صباح الخير يا بهاء .

ونظر اليها في شوق رحيب وتمتم : سلمى ؟ .. صباح الخير .

قالت : دائماً وحيد ؟

قال : أجل دائماً وحيد .

ونظرت الى الطاولة المنكب فوقها على تدوين أبيات شعره فإذا بكأس خمر تشع أمامه ، فأمسكت بالكأس لتقول : دائماً هذه الكأس ؟

وأمسك بالقلم يتمتم : ودائماً هذا السيف .

وقهقهت سلمى ، وقالت : يا لأطوارك الغريبة يا بهاء .

قال : أأكون غريب الأطوار يا سلمى ؟

قالت بحزم : بهاء ! . دعك من هذه الأوهام التي تعيش فيها . دعك من هذا الظلام القاتم السواد الذي تحبس نفسك فيه ، ما

لك وللنظم ولتدوين الآراء والأدب والشعر . هذه خرافات ، خرافات وأوهام لا تجدي نفعاً ولا تطعم خبزاً ، عد الى رشدك يا بهاء ، انظر الى ثيابك البالية ، انظر الى غرفتك او بالأحرى الى كوخك الحقير الذي تعيش فيه ، نظرة واحـدة الى الحياة التي تحياها ترجع بك الى الصواب .

ووجم بهاء .

وراح ينظر الى ثيابه والى كل ما في كوخــــه من أثاث بالٍ قديم العهد محطم.وهمس : ثيابي البالية ؟ كوخي الحقير ؟ .. ان كوخي الحقير هذا يا سلمى لا يضم من بهاء العواد سوى الجسد ، الجسد فقط ، أما روحي ، روحي المجنحة الهائمة الحيرى فهي طليقة الجناح لا يقدمها قصر ولا يحنو عليها كوخ ، انها لتسبح في الفضاء ، انها لترتفع الى الأعالي ، انها لتغفو هناك ، هنــــاك في الضباب وعلى متن الأثير . لا تنظري الى بيت الجسد يا سلمىبل انظري دائماً الى مسكن الروح . الويل كل الويل لذلك الانسان الذي يُقيم جسده في قصر ناعم الرياش ويسجن روحه في جحـيم محرق من المادة والذهب والشهوات ، وهنيئاً هنيئاً يا سلمى لمن يسكن الاكواخ ويطلق روحه في الفضاء تسبح بين الغمام وتتنشق عبير الحرية ، وتستحم بنور السعادة والانعتاق .

قالت : ولكن هل يستطيـــع الانسان أن يتحرر من المــادة والمادة جزء من كيانه ؟

قال : الانسان يستطيع ان يحطم قيود المادة بمطارق التحرر

ساعة يشاء ، ومـــا الجسد سوى شعلة من الشهوات يستطيع الانسان أن يخمدها بالارادة البشرية . متى ينظر الانسان إلى أخيه الانسان بعين الحنان والشعور فلا يحمل من المادة منظـاراً ومن الذهب نوراً ، ومن المال عيناً يثب فيها إلى خفايا قلب أخيه الانسان ؟

فتقدمت منه تلامس شعره الجميـل بيدهـــا البضة الناعمة البيضاء .

وتتمتم : بهاء ! فتش لك عن عمل تحيـا به حياة هانئـــة سعيدة ، ويضمن لي ولك السعادة والهناء في المستقبل القريب .

قال : بئس سعادة تقوم على المال يا سلمى . ما قيمة المال في الحياة إذا كنا لا نستطيع أن نشتري به كل مـا نريد ؟ قولي لي يا سلمى أتبيعين عينيك بأموال العـالم كلها ؟ قولي ، أتستطيعين أن تشتري لقلبك ذرة من سعادة بكل ما يملك أبيك من خيرات هذا العالم الفاني ؟ إذا كنـــا لا نستطيع أن نشتري بالذهب لا المادة ولا الروح فلماذا نخزنه إذن ونحرص عليـــه حرصنا على الحياة ؟ أنا غني يا سلمى ، غني جداً ، غني لأنني لا أجمـع ثروتي في صندوق صغير بل أطلقها في الفضـاء الواسع الرحيب . إنني أملك كل شيء على هذه الأرض، الراحة ، الهناء ، الضمير الحي، الروح الطاهرة ، الحنـان ، الشعور ، الدمـــوع ، الانعتاق ، الاشتياق الى الأعالي ، أما والدك ، أما اولئك الأغنيـاء الذين يحشون أفواههم بالذهب ويتخمون بطونهم بالمال فهـم الفقراء في

الحياة . وإني لأشفق عليهم من فقرهم ومن جوعهم ومن عطشهم .

فعادت الى إقناعه .

وطوقت عنقه بذراعيها .

وتمتمت : بهاء ! .. أنا أحبك يا بهاء . أتدرك قيمة هذه الكلمة تخرج من فم فتاة لتنسكب في أذن شاب عقدت عليه الآمال والأحلام . لا تفجعني بأعز أمانيّ يا بهاء ، أحبك أحبك أحبك !

واغرورقت عيناها بالدموع .

فهي تدرك أي وهدة عميقة الغور تفصلها عن هذا الحبيب المتمرد على الشرائع البشرية والقوانين والدساتير .

وتدرك كل الادراك أن لا سبيل الى الزواج من بهاء ، إلا وقد عاد إلى رشده ، وانصرف الى عمل يستطيع أن يؤمن من ورائه عيشه .

وأمسك بهاء بيدها ، وقد أشفق عليها ليقول : سلمى ! .. من يسعَ إلى الذهب يصل إلى التراب ، ومن يهرب من الذهب يلحق الذهب به . وقد قال الرسول العربي الكريم : « ويرزقكم الله من حيث لا تعلمون » .

وإذا بالباب يُطرق ،

وقبل أن يقف بهاء ليفتح الباب كان صديق بهاء الحميم بديع ...

النادر يثب من الباب على فرحة وانشراح .

ولم يلقِ التحية .

بل تقدم من صديقه بهاء وهو يقهقه :

وقال بهاء : قبلني ، تعال قبلني يا بهاء .

فابتسم بهاء .

ووجمت سلمى .

وعاد بديع إلى طلب القبلة من صديقه بهاء : قلت لك قم قبلني !.

- ولكن لماذا تطلب قبلة من صديقك يا بديع ؟.

قال : لك عندي بشرى سارة ، سارة جداً .

قال بهاء : هات البشرى إذن .

قال : لا ، القبلة أولاً .

وبديع شاب خفيف الروح دائم المرح والسرور ، وكان رفيق بهاء الدائم ، فهو صديقه الحميم ورفيقه الوفي .

وتقدم بديع من بهاء عارضاً عليه خده للقبلة .

وقبّل بهاء صديقه بديع .

وتقدم بديع من سلمى على مهل ليقول :

وأنتِ ألا تريدين أن تسمعي الخبر السار يا سلمى؟ إذا أردت الاستماع اليه فهاتي قبلة .

وضحكت سلمى .

وضحك بهاء .

وعاد بديع إلى التبشير : خبر سار .. سار جـــداً جـــداً .

قال بهاء بغضب : وأخيراً يا بديع ؟

قال بديع : وأخيراً .. وأخيراً وأخيراً مات عمك .

وصعق بهاء : عمي مات ؟ أهـــذا هو الخبر السار يا رسول الشؤم ..

قال بديع : أتجهل ما قيمة هذا الخبر ؟ ألا تعـلم ما ترك لك عمك من الثروة والمال والذهب ؟

وتمتم بهاء : سلام عليك يا روح عمي .

وتمتمت سلمى على فرحة وابتسام : « ويرزقكم الله من حيث لا تعلمون ... »

وعاد بديع إلى القهقهات .

فهو على فرحة وغبطة وسرور .

وكان يقفز من مقعد إلى مقعد ومن زاوية إلى زاوية وقهقهاته تملأ جدران الكوخ المتواضع الكئيب !.

ونظر إلى سلمى يقول : خمسون ألف ليرة ذهبية ، قريتـان كاملتان وقصر فخم شامخ منيف في وادي الجماجم .. هذه هي

تلك الثروة المتواضعة التي تركها شيخ قصر الجماجم عم بهاء أيتها الآنسة سلمى !.

ووجمت سلمى على دهشة وإعجاب .

وتمتمت : ماذا تقول يا بديع ؟

وتمتم بديع : والله العظيم أقول الحق ..

ووثبت سلمى الى حبيبها بهاء تطوقه بذراعيها وتتمتم :

بهاء ، أرأيت نعمة الله تهبط عليك من السماء . لقد أصبحت غنياً يا بهاء ، لم تعد بحاجة الى العمل ، فالذهب يتدفق بين يديك وقد انتقلت هذه الثروة الضخمة اليك .

وتمتم بهاء دون أن يحول نظره عن الأفق من النافذة العبوس: وددت لو بقيت فقيراً وبقي عمي على قيد الحياة !..

وراح بديع يرسل قهقهاته عالياً ..

وقال : إنك مجنون يا بهاء .. قل لي بربك أي نفع من حياة شيخ في الثمانين من عمره يملك كل هذه الثروة الطائلة ويضن على ابن أخيه بالدرهم وبالرغيف . قل لي يا بهاء ، هل جـاد عليك عمك يوماً بكأس مـاء ؟ ألم يكن يعرف أنك تعيش في فقر وبؤس وشقاء ؟.

وصمت بهاء .

وصمتت سلمى .

وانقطعت قهقهات بديـع .

وبعد صمت طويل قال بهاء : لقد كان عمي بخيــلا . نعم هذا صحيح ، ولكن من هو المسؤول عن البخــل الكامن في قلب عمي ؟«أقول لكما الحق ؟». إنه المال ، أجل المال هـو المسؤول عن زرع البخل والقساوة والمكر والخـداع والشر في قلوب البشر . ليس ثمة ذرة من رحمة ولا حفنة من شفقة في قلب غني . أما الفقير فالشفقة تغمر روحه وتضيء الظلام في قلبـه . ويظل الانسان مرتاح الضمير ناعم البال ، يحتل قلبــه الحنين ويغمر روحه الحنان الى أن يتدفق المال الى صندوقه . وعندئذ، عندئذ فقط ، تتحول موجة الحنان في قلبه الى قساوة ، ونور المحبة الى نار البغض .. لو توارى المال عن الحيــاة لما بقي أثر للشر !.

وابتسمت سلمى على هزء وسخرية .

قالت : وما هي قيمة حياة البشر دون المال يا بهاء ؟.

وأرسل بهاء العواد زفرة محرقة ،

وتمتم : البشر ؟ ومن هم البشر ؟ البشر كالأسمـاك يا سلمى ، القوي يبتلع الضعيف والغني يستعبد الفقير .

والتفت بهاء الى بديـع ليقول : بديع ! يا صديقي الحميم !. أنا لن أمس فلساً واحداً من ثروة عمي !.

وذعر بديع : ماذا تقول ؟ ماذا تقول يا بهاء ؟

قال بهاء : أجل ، سأوزعها كلهـا على الفقراء ... الفقراء بحاجة إلى المال المتكدس في صندوق عمي . أما الأراضي والحقول والكروم والبساتين فستوزع على الفلاحـين . . . هـذه هي مشيئتي .

وظهر الذعر في عيني سلمى ،

وتقدمت من بهـاء تقول : والجوع ؟ ألا تفكر بالجوع يا بهاء ؟ .. هلاّ أبقيت من ثروة عمك على نذر قليـل يقيك شبح الجوع ويدفع عنك الفاقة ؟ .

قال بهاء : إن ذاك القوي القدير المحتجب عن عيوننا وراء الأثير ، ذلك الأب الرحيم الشفوق لن يهمـل أمري . من يخلق الانسان من العدم يرسل إلى الانسان رزقه . مسكين الانسان يا سلمى . يخيل اليه أن يده تدفع عنه الجوع ، تدفع عنـه المصائب والويلات ، في حين أنه على ضلال . هنـاك يد خفية تدير هـذا الكون وتغمر الانسان بكل إحتياجاته على هذه الأرض : « أقول لكم الحـق ان شعرة من رؤوسكم لا تسقط إلا بإرادة أبي الذي في السماء » هكذا قال يسوع المسيح .

قالت سلمى : والغد ؟ ألا تفكر بالغد ؟

قال : « لا تفكروا بالغد ، لأن الغد يفكر بكم » . هذا ما قاله المعلم الصالح .



قالت سلمى : لن أدعك توزع أموالك على الفقراء يا بهاء .
لا ، هذا مستحيل . مستحيل !.

قال : سلمى ! من يعطِ الفقير يأخذ من الله .

قالت : لا تكن مجنوناً يا بهاء ! لا تكن مجنوناً يا حبيبي...

قال : سلمى !.. سلمى !.. أنا جزء لم يكتمـــل بعد ، أنا أشعر بأن روحي تتوق الى معانقة روح خفية لا أراها ولا أحس بها ، ولا أعلم أين هي. ومن أجل هذه الروح سأطوف معالم هذه الحياة . لكل روح رفيقة في الحياة . وقليـلة هي الأرواح التي تلتقي برفيقاتها على هذه الأرض . أما هنــاك ، هناك في العالم الثاني حيث لا ألم ولا دمع ولا شجن للابرار ، هنـــاك تلتقي الأرواح وتتعانق وتهيم في الأزل على نشوة عامرة لا تحلم بها عين ولا تسمع بها أذن !.. »

وضحك بديع وتمتم : أنت مجنون ، مجنون ، مجنون !..

والتفت بهاء إلى صديقه بديع يقول : بديع ، سأعهد اليك بتوزيع ميراث عمي على الفقراء أمثالي . لا تبقِ سوى القصر ، قصر الجماجم . هذا القصر سيكون مأواي . هناك سأعيش وحيداً في ذلك القصر النائي الموحش البعيد أستقبل الشمس كل صباح عند بزوغها ، وأودعها كل مساء عند رحيلهـا ، أشارك الاطيار أفراحها وأغانيها ، وأشاطر الجداول تسابيحها وترانيمها

المقدسة . سيكون كل شيء لي هناك . النور والهواء والجمال والزهور والأشجار والاغصان والصخور والجداول والينابيع . هذه هي الثروة في الحياة ، وهذا هو المال يا بديع !.

وتمتم بديع : مجنون ، مجنون ، مجنون !.

واستأنف بهاء الكلام قال : غداً سأترك هذا الكوخ وأتوجه إلى قصر الجماجم ولن أعود إلى هنا يا سلمى .

قالت : بهاء ! لمن تتركني هنا ؟

قال : إذا أراد الله سنلتقي ثانية يا سلمى . لتكن مشيئة الله ، لتكن مشيئة الله .

ووثب بديع إلى بهاء على ذعر يقول : أنت لن تذهب إلى قصر الجماجم ، هنا ستظل . أتجهل ما يجري هناك يا بهاء ؟.

قال بهاء : وماذا يجري ؟

قال بديع : الارواح الشريرة تحتل قصر الجماجم ، وهي ترقص وتعربد كل ليلة في أروقته وعلى شرفاته .

وتقدم بديع من بهاء يهمس في أذنه : ويقال أن الارواح الشريرة فتكت بعمك يا بهاء ، لا سيما ان جثته اختفت بعد موته بقليل . ليس ثمة من يدري كيف اختفت ، الارواح حملتها وطارت بها إلى عالمها المجهول !

وتمتم بهاء : خرافات ! خرافات .

إلا ان بديعاً لم يكن ليؤمن بالخرافات قال: الشائعات كثيرة حول قصر الجماجم :

« الأرواح تظهر ليـــلاً في القصر ، وتعوي كالذئاب ، فيذهب صدى عوائها في تلك الوديان صفيراً مرعباً مخيفاً... »

وكان عم بهاء شيخ قصر الجماجـم يشاهد تلك الارواح كل ليلة تقفز في جنبات القصر فترتعد فرائصه..

وقد روى شيخ قصر الجماجم قصة الارواح الراقصـــة في قصره لكثيرين من أصدقائه . وكان شيخ قصر الجماجم يعيش وحيداً في القصر ، ولم يكن ثمة قريب له إلا بهاء ، وبهاء يأبى أن يعيش عالة على عمه .

فقد اختار حياة الفقر والبؤس والشقاء .

وكان ظهور الارواح في قصر الجماجم قبـــل مصرع الشيخ بثلاث سنين .

وكانت المرة الأولى التي ظهرت فيها الارواح الشريرة للشيخ ذات ليلة من ليالي كانون البارد القارس العاصف...

وكان الشيخ يجلس قرب الموقد الملتهب الانفاس المتصـاعد اللهب يصطلي ويطرد بالنار البرد عن جسده النحيل .

وسمع طرقاً متواصلاً على باب القصر الخارجي ، فحمـــل المصباح الزيتي الشاحب النور وسار إلى الباب يفتحه ، إلا أنه لم يجد أحداً على الباب ..

وعاد إلى الموقد يجلس قربه ، ليعود الطرق إلى الباب مجدداً

وأسرع الشيخ إلى فتح الباب .

إلا أنه لم يجد أحداً ..

وكانت الامطار تنهمر بغزارة .

والريـح تعصف ، وتعربد ، وتولول في ذلك الوادي المقفر الرهيب .

فراح الشيخ يحدق في الظلام لعله يرى مسافراً ضل السبيل ، أو معّازاً يريد الاحتماء من العاصفة والسيول ...

ولكنه لم يرَ مسافراً .

ولا رأى معازاً .

بل مارداً جباراً يقترب من باب القصر مع العاصفة الهوجاء.

وكانت عيناه من نار ولسانه من لهب ، فخاف الشيخ وأوصد الباب وأسرع بالعودة إلى داخل القصر ..

وعندما جلس قرب الموقد ليصطلي شاهد المارد الجبـار أمامه يرتدي الثياب السوداء .. القاتمة السواد ، ويقهقه .

فذعر وخاف وأغمي عليه .

وعندما استفاق كان الليل قد توارى ، والفجر بدأ يوشح ثوب الطبيعة الجميل .

وكانت العاصفة الهوجاء قد همدت .

والرياح المولولة قد هدأت .

والأمطار انقطعت .

ولم يشاهد أثراً للمارد الجبار ..

ولكن المارد استأنف الظهور في الليلة التالية ..

فقد عاود الطرق على باب القصر .

وخيل لشيخ قصر الجماجم ان أحد الفلاحين جاء يحتمي في قصره من الامطار ، فوقف ينادي بأعلى صوته : « من الطارق ؟ من الطارق ؟ »

ولكن لم يكن ثمة من مجيب ...

وكان الشيخ الحائر الواجم يحمل المصباح الزيتي المبحوح بيده وهو ينادي ..

وإذا بعاصفة هوجاء تهب فتطفىء المصباح .

وأصبح الشيخ في ظلام قاتم السواد ، مدلهم ، دامس .

وأحس بالخوف يداعب فؤاده .

وازداد اضطرابه ، وعويل العاصفة الجنونية يتكسر في أذنيه ، ويحمل اليه أشباح الارواح التي كان قد سمع عنها الكثير .

وإذا بأصوات مخيفة تنطلق مع العاصفة المعربدة المتمردة المجنونة .

وكانت تلك الأصوات أشبه بعواء الذئاب ، وفحيح الافاعي .

وكاد يجن ، يجن ...

وحاول العودة إلى الوراء .

لقد حاول الدخول الى القصر ، إلا أنه لم يستطع الى ذلك سبيلا .

وشعر بركبتيه تصطكان من الفزع ...

وراح يحدق في الظلام محاولاً اختراق ستاره الكثيف ..

ورأى .

ماذا رأى ؟

لقد رأى الارواح الشريرة المجنحة , ذات القرون الطويلة ، والاسنان المسنونة اللامعة ، والأيدي البارزة الاصابع المرفوعة في الهواء ، وكانت تلك الارواح تقفز كالثعالب .

وكانت ترسل عواء وأنيناً ونواحاً وهي تتقدم منه .

فاشتد ذعر الشيــــخ الواثب الى الثمانين من عمره على وهن وضعف وارتعاش .

وحاول الصراخ .

لقد حاول الاستنجاد ، إلا أنه لم يستطع ذلك ، ووقع على الارض فاقد الرشد !.

وعندما استفاق كان الليل قد قارب الانتهـــاء ، والفجر بدأ يتأهب للبزوغ بأنواره الوردية الرائعة الجمال .

وكانت العاصفة قد بدأت تسكن.

وانقطع انهمار الامطار ، وتدفق السيول .

وبدأ الغمام ينقشع في الفضاء .

فجلس الشيخ المسكين متمتماً : « أين أنا ؟ ماذا حدث ؟».

واستعاد في ذاكرته ما حدث له ..

وعاوده الذعر .

إلا انه راح يتمتم بعض الآيات المقدسة .

ونهض بجهد ، ودخل الى القصر ليستلقي فوق سريره واهي القوى وهـــو يلهث من الخوف والعرق البـارد يتصبب من جبينه .

وفي الصباح جاء الفلاحون الى القصر يسألون عن سيدهم .

وما ان شاهدوه على تلك الحال حتى اسرعوا إلى استدعاء الطبيب .

وجاء الطبيب .

ومده بالعقاقير وبالأدوية والمصول .

وأعلن الطبيب أن لا خوف على حياته وان قلبه يستطيع المقاومة والصمود .

وروى الشيخ للفلاحين وللطبيب ما شاهد في الليلة السابقة فضحكوا منه .

وأتهموه « بالخرف » : أنه مجنون . الشيخوخة تمكنت منه وعبثت بعقله وبجسمه وبكيانه .

إلا ان اولئك الضاحكين من شيخ قصر الجماجم وجموا وقد شاهدوا في الليالي التالية ما شاهد الشيخ .

فقد خاف الشيخ المسكين ودعا اثنين من الفلاحـــين للنوم عنده في القصر .

ونام أحدهما فارس الجواد أمام الباب الداخلي .

ونام الثاني سليم عساف أمام غرفة الشيخ .

ونام الاثنان ملء عيونهما وقد أيقنوا ان كل ما قاله الشيخ خرافات ووهم وخيال .

وقبل مطلع الفجر البعيد بقليل سمع فارس الجواد صفـيراً مخيفاً مقبلاً من الغابة السوداء .

واستفاق على ذعر .

وخيل اليه ان ثمة عاصفة تقتلع الاشجار وتعبث بأغصانها .

وراح ينظر الى الباب بخوف ، وقد أيقن ان العاصفة المصفرة الهوجاء ستحطم الباب .

إلا ان الباب فتح على مصراعيه فجـأة ، وكأن ثمة مئة يد فتحته .

وشاهد أشباحاً سوداء تتخطى عتبة القصر ، مرسلة صفيرها المخيف ، وكانت تلك الاشباح القاتمة السوداء تقفز ..

انها لتقفز قفزاً ولا تسير كما يسير الانسان

واستلقى فارس في سريره ، وأسنانه تصطك من الفزع .

أما سليم عساف فقد أطلق ساقيه للريح، وقد شاهد الاشباح تحتل القصر على الرحب والسعة .

ومنذ تلك الليلة انتشر نبأ الارواح الشريرة التي تحتل قصر الجماجم وتحاول الفتك بكل من تسول له نفسه الدخول الى القصر .

وابتعد الجميع عن القصر ، القصر المسكون .

الكل هجر القصر .

الكل إلا الشيخ العنيد عم بهاء .

فقد أبى الشيخ ان يتخلى عن قصره .

وتعوّد الشيخ مقابلة الارواح والاستماع إلى عويلها وأنينها وصراخها .

ولم تعد تخيفه . . .

وألف النوم ، والارواح الشريرة ترقص حول سريره .

وكان يروي للفلاحين كل يوم أخبار الارواح ، وهو يبتسم ، كأنه يروي قصص الحب والغرام .

وذات صباح اختفى الشيخ . . .

استفاق الفلاحون فلم يجدوا للشيخ أثراً ، لا في القصر ، ولا في خارج القصر ، ولا في جميع أنحاء وادي الجماجم .

وذعروا . . .

وأيقنوا ان الارواح الشريرة فتكت بالشيخ المسكين وحملت جثته وطارت بها الى عالمها البعيد المجهول القرار .

وأقاموا على ذعر : اليـــوم فتكت الارواح بشيخ قصر الجماجم ، وغداً ستفتك بنا واحداً واحداً .

لن تبقي على واحد منا .

الكل سيذهب ضحية الارواح .

وبدأ الفلاحون ينزحون عن حقولهم ، وقـد دب الخوف في نفوسهم ، واحتل الرعب قلوبهم .

وانتشرت أنباء الارواح الشريرة في تلك الربوع .

وبدأ البحث عن بهاء العواد الوريث الوحيـد لشيخ قصر الجماجم .

وعلم بديع ... صديق بهاء الحميم بالأمر فأسرع الى صديقه حاملاً له الخبر .. السار .. « السار جداً .. » .

وأصر بهاء على الذهاب الى قصر الجماجم :

وحاول بديع إقناعه بالعيش في عاصمة لبنان ، في بيروت ، حيث النوادي ، والملاهي ، والمراقص ، ووسائل الترفيـــه والمجون .

وحاولت سلمى إقناع حبيبها بالبقاء قربها .

فهي تأبى البعاد عنه .

انها لتريد أن تظل قربه .

سلمى تحب بهاء .

تحبه وتتفانى في حبه وتأبى الانفصال عنه .

ووثبت سلمى الى بهاء تقول : بهاء ! أنت الآن غني ، غني جداً ، ووالدي سيوافق فوراً على زواجي منك . لقد سنحت الفرص لنا يا حبيبي يا بهاء . لن أبعد عنك ، ولن أدعك تبتعد عني ، سنعيش معاً ونموت معاً .

وطوقته بذراعيها تضمه الى قلبها ، والسعادة تغمر روحها ، وتهز كيانها ، وتفرح قلبها الندي .

وتمتم بهاء : سلمى لن أظل هنا ، لن أظل ، ولن أتمتع بثروتي . المال يجب ان يوزع على الفقراء ... والاراضي تمنح للفلاحين الذين تعبوا في حراثتها وزرعها .

أما القصر ، قصر وادي الجماجم فهو لي . سأقيم فيه على وحدة وانفراد . هناك أستطيع أن اجتمع بروحي . أستطيع ان التحدث دون أن يضايقني أحد ، هناك سيعيش بهاء وحيداً الى ان تحين ساعة الرحيل .

ووثب بديع على ذعر : بهاء ! . رحمة بشبابك الغض النضير . لا تعرّض نفسك للأخطار يا بهاء . الارواح تحتل قصر الجماجم . إني أقسم لك . الفلاحون بأسرهم شاهدوا الارواح تحتل القصر .

قال بهاء : أتكون مجنوناً يا بديع ؟ أي أرواح هي هذه

التي تتكلم عنها ؟ بيننا وبين الارواح حاجز مادي لن تستطيع يد هدمه . لا الارواح تستطيع الوصول الينا ولا نحن نستطيع الوصول اليها إلا من خلال الغيب ، من خلال الضمير ، من خلال الوحي والالهام . لن تنكشف لنا حقيقة الارواح يا بديع إلا في تلك اللحظة الرهيبة التي تنفصل فيها الروح عن الجسد .

فعاد بديع الى التوسل والاستعطاف : بهاء ! .. إذا لم تخش الارواح فاخش اللصوص . هناك في جرود جبل الجماجم عصابة مخيفة تفتك بالاغنياء وتسلبهم أموالهم . انها عصابة الموت. هذا هو اسمها . عصابة الموت هذه تحتل مغاور جبل الجماجم وواديه . وكثيرون هم الاغنياء الذين فتكت بهم تلك العصابة . لا ترمِ نفسك في النار يا بهاء .

قال بهاء بعناد : لقد قلت كلمتي . لن أتزحزح عنها . أنا سأذهب الى قصر الجماجم وأعيش فيه . إذا شئت أن ترافقني فلك الخيار .

وجلس بديع على مقعد واهي القوى ، وقد أدرك ان ليس ثمة قوة تستطيع أن تقعد بهاء عن عزمه .

وتمتم : أمرنا لله ... أمرنا لله ... سأذهب معك إلى قصر الجماجم وليفعل الله بنا ما يريد .

وانصرف بهاء العواد إلى الاستعداد للسفر إلى وادي الجماجم .

سيغادر بهاء كوخه الحقير ليتوجه إلى وادي الجماجم .

ويعيش في ذلك القصر الموحش البعيـــد ، القائم أبداً على تجهم وكآبة وعبوس .

وأقامت سلمى على حزن عميق .

حبيبها سيبتعد عنها .

وستكون حياته في خطر .

إذا لم تفتك به الأرواح الشريرة ، فسيفتك به اللصـوص . هكذا قال بديع .

أما بديع فقـــد جلس على كرسي مخلع في زاوية من زوايا الكوخ واستسلم للتفكير العميق والخوف البعيد .

إنه يخاف الارواح الشريرة .

ويود لو أنه يستطيع صرف صديقه بهـــاء عن عزمه على العيش في قصر وادي الجماجم المهجور ، البعيد ، المغمور بالوحدة والانفراد ، المسكون بالارواح الشريرة ، المحاط باللصـــوص المجرمين .

وخيم الصمت على الكوخ .

وراحت سلمى تسكب الدموع الغزيرة .

وتتمتم : بهاء! بعادك عني سيغمر روحي بالآلام والاحزان، ويبعث الدمع إلى عيني . خذني معك إلى قصر وادي الجماجم ، خذني معك إلى حيث تريد . أنا أحبك ، أحبـــك يا بهاء ولا

أستطيع أن ابتعد عنك .

قال بهاء : إذا كان لي في قلبك ذرة من حب فالبعاد سيجعل من هذه الذرة قوة هائلة تغمر كيانك وتقضي فيك على روح البغض والشر يا سلمى . ليس ثمة قوة كقوة البعاد تستطيع أن تفعل العجائب في قلوب المحبين . البعاد لقلوب المحبين كالندى للأزهار ، وكالنور للاطيار ، وكالجداول للانهار . لا يستطيع المحب أن يزن حبه لحبيبته إلا بميزان الفراق . ساعة الفراق يعرف المحب مقدار حبه لذلك الحبيب الذي سيبتعد عنه ؛ ولا يخيل اليك يا سلمى ان الفراق يطفىء لهيب الحب . لا ، لا . . ؛ إن الحب لا يعيش في القلوب إلا إذا غمره الفراق وأذابته نار البعاد الطويل . أنا سأبعد عنك الآن . إذا قدر لي أن أعود فسأجد قلبك مضطرماً بنار الهوى والغرام . وإذا كان فراقنا أبدياً فسنلتقي هناك . هناك في العالم الثاني حيث لا فراق ، ولا بعاد ، ولا عذاب ، ولا دموع .

ودعاها للانصراف : الآن وقد آن أوان الفراق فإني لأطلب اليه تعالى أن يحرسك ويرد عنك ضربات الشرير ويجعل قلبك تربة صالحة للهوى ، وطعاماً شهياً لنار الحب المقدسة الخالدة السرمدية .

وودعها بابتسامة واهية كأوراق الخريف .

أما هي فلم تكن لترضى بالابتسامة .

، إنها لتطمع في معانقة حبيبها ، وفي ضمه إلى صدرها ، وفي تقبيله .

ومن يدري؟ قد يكون هذا الوداع الأخير . فلا تقع عيناها على بهاء بعد اليوم .

وطوقته بذراعيها النحيلتين .

وضمته الى قلبها برفق وحنان .

وألقت رأسها الجميل إلى صدره .

وأجهشت بالبكاء .

وراحت أصابع بهاء تعبث بشعرها الحريري ، وهو ينظر من النافذة إلى الأفق البعيد ، والدموع تترقرق في عينيه .

ووقف بديع بعيداً ينظر الى وداع الحبيبين ، وهو يجهش بالبكاء كالأطفال .

وكان منظره مضحكاً في سكبه الدموع .

فهو يتمنى لو يتاح له ان يقف موقف بهاء .

يتمنى لو يجود عليه الله بحبيبة تسكب الدمع لفراقه ، وتضمه الى صدرها ، وتلقي برأسها الجميل الى صدره .

وطالت وقفة الحبيبين في وداعها الأليم .

وطال بكاء بديع ونحيبه وعويله .

ومضت الدقائق سريعاً .

ولم تنسلخ سلمى عن صدر بهاء إلا وقد أنهكها ألم الفراق ،

وبللت دموعها عنق حبيبها وصدره .

وما ان خرجت سلمى من كوخ بهاء حتى أسرع بهاء الى بديع يدعوه الى المسير : قم ، هيا بنا إلى وادي الجماجم ، هيا بنا .

وخرجا من الكوخ .

وأوصد بهاء باب الكوخ المخلع وراءه ، وهو يتمتم : وداعاً أيها الكوخ الذي ظللني زمناً طويلاً وغمرني بحنانه وعطفه ، وشاهد بؤسي وعذابي ودموعي .

وسارا الى الطريق العام ، باحثين عن عربة تنقلهما الى وادي الجماجم .. والعربات يومذاك تجرها الخيول .

فليس ثمة سيارات يدفعها « البنزين » الى الانطلاق.

ما هناك في لبنان سوى عدد قليل من السيارات لا يتجاوز عددها أصابع اليدين .

وتلك السيارات كانت وقفاً على الاغنياء الكبار من أبناء البلاد وعلى كبار ضباط الجيوش الفرنسية المحتلة في لبنان .

وطال بحثهما عن العربة .

ولكن دون جدوى .

فليس ثمة حوذي يرضى بأن ينقلهما بعربته الى وادي الجماجم النائي البعيد ، الضيق الطريق .

ورأى بهاء أن يقطعا طريق وادي الجماجم سيراً على الاقدام

إلا ان بديعاً لم يكن من رأيه .

فهو يفضل امتطاء عربة تنقلهما الى القصر الموحش الكئيب .

وقال بديع : نحن أغنياء الآن . إنك لتملك ثروة طائلة يا بهاء ، أيجوز للاغنياء ان يسيروا على أقدامهم ؟ وأيم الحق . لن أسير خطوة واحدة ، لن أسير..

وابتسم بهاء وقال : تعال . أنسيت أننا لم نستلم بعد الثروة المدرار يا بديع ؟ نحن ما زلنا فقراء حتى الآن . تعال تعال .

وأمسك بيده يجره .

وسار بديع على تأفف وتذمر .

وكان يتمتم كلمات نابية تدل على مدى غضبه وحنقه .

وسارا سيراً حثيثاً .

وكان بهاء يحمل دفاتره وأوراقه وأقلامه .

أما بديع فكان يحمل بعض المأكولات والأثمار .

وطال سيرهما .

وأدركهما الليل ، وهما في غابة كثيفة الاغصان وارفة الظلال .

فجلسا تحت شجرة سنديان عجوز وكان بديع شديد الهلع. ان ذكرى الارواح الشريرة لا تزال ماثلة أمام عينيه .

ودعاه بهاء الى النوم تحت السنديانة - : هنـا سنرقد الليلة يا بـديع ، لنستأنف سيرنا مع مطلع الفجر البعيد .

وتأفف بديع وتذمر : هنا ؟ هنا في هذه الغابة تريدني على النوم ؟ هل جننت . ألا تخاف الأرواح ؟ ألا تخاف اللصوص ؟ ألا تخاف الوحوش الضارية ؟

فعاد بهاء الى الابتسام : انا لا اخاف شيئاً . الانسان يخيف ولا يخاف يا بهاء . الارواح لن تمسنا بسوء . واللصـوص لن يستطيعوا ان يشفوا غليلهم منـا ، ما دمنا لا نحمل ذهباً ولا فضة . اما الوحوش فهي ارفق بالانسان من الانسان بالحيوان . لا تخف . نم . نم .

وتمدد بهاء فوق التراب .

واسند رأسه بيده .

واستغرق في نوم عميق

وحاول بديع النوم ، فلم يستطع .

ونهض يجمع الحطب ويضرم النار .

إنه ليأمل ان يطرد لهيب النار ونورها الارواح والوحوش...

وكانت ألسنة النار تتصاعد وسط الظلام فتجعـل من أشجار الغابة الكثيفة أشباحاً هائلة تتمايل كلما تمايلت ألسنة اللهيب مع نسيم الليل العليل .

ونام بديع .

وكان الليل البهيم يرخي على الغابة هدوءه فيزيد في وحشة المكان .

وأبى بديع ان يفتح عينيه ، إلا وخيوط الفجر الوردية توشي ثوب الصباح الجميل بنورها الناصع البياض .

واستفاق بهاء من نومه

ونهض يدعو بديعاً لاستئناف المسير إلى قصر وادي الجماجم .

وعادا إلى المسير ...

وكانا يقطعان الجبال ، والوديان ، والتلال ، ويمران بالجداول والانهار فيقف بهاء عند كل منظر طبيعي رائع فاتن مأخوذاً بعظمة الخالق الديان وبقدرته وجلاله .

وطال مسيرهما خمسة أيام ، أطلا بعدها على وادي الجماجم الموحش الرهيب .

وشاهدا القصر الرابض في سفح الجبل المطل على الوادي السحيق .

فصفق بديع طرباً : الحمد لله ، لقد وصلنا أخيراً بالسلامة .

وكان عليهما أن يجتازا النهر الفاصل بين سفحي الجبلين الماخر عباب الوادي ، للوصول إلى القصر .

واجتازا النهر حافيي الأقدام

ووصلا إلى القصر ، والشمس قد بدأت تتأهب للأفول وراء تلك الجبال والتلال .

وكان كل ما هناك يوحي بالرهبة والخشوع .

فالقصر الشامخ المنيف مكفهر عبوس .

وهو غارق في الغابة الكثيفة الأغصان الوارفة الظلال .

وأناشيد النهر تنساب عند أقدام قصر الجماجم تتكسر في أذن الطبيعة .

فتزيد في رهبة المكان ووحشة الوادي وعبوس القصر .

ووقفا أمام الرتاج العالي .

وكان الباب الحديدي مفتوحاً على مصراعيه .

فهمّ بهاء بالدخول .

إلا ان بديعاً وقف بينه وبين الب'ب ، والخوف مرتسم على وجهه .

وتمتم : الارواح .. الارواح .

والتفت بهاء العواد إلى رفيقه وصديقه بديع ليقول : أين الارواح يا بديع ؟ إني لأتوق إلى مرآها .

قال بديع :

– إسمع . . إسمع يا بهاء ، ألا تسمع حفيفها وفحيحها يقترب منا ؟

قال بهاء :

أنا لا أسمع شيئاً .

قال بديع :

– إسمع .. إسمع

وسمع بهاء !

ماذا سمع ؟

لقد سمع حفيفاً ضعيفاً غريباً ينساب مع خيـــوط الشمس الصفراء الواهية المنسابة من بين الاغصان والأشجار .

وأرهف بهاء أذنيه .

وكان الحفيف يقترب منها رويداً رويداً ، قادماً من الغابة القريبة من القصر الشاهق الجبار .

ووقف بديع يرتجف من الخوف .

وكان يحاول الكلام فيختنق الكلام على شفتيه .

والتفت بديع إلى بهاء على ذعر .

وتمتم بعد جهد :

ـ أنا أريد العودة . فلنعد حالاً قبل أن تقضي علينـــا الأرواح يا بهاء .

وابتسم بهاء وقال :

ـ لقد قضينا خمسة أيام وليالٍ نسير على أقدامنـــا إلى أن وصلنا إلى القصر ، وتريد العودة فوراً قبل أن نأخذ قسطنا من الراحة ؟! تعال يا بديع . تعال تدخل إلى القصر ، لا تخف يا صديقي .

قال بديع بخوف :

ـ أتريد الدخول إلى القصر والليـل يتأهب للوثوب ؟ أنت مجنون مجنون مجنون . أدخل إلى القصر وحدك يا أخي ، أمـا أنا فأريـــد العودة .

وهمّ بالعودة أدراجه .

إلا ان الحفيف كان مقبلاً من الغابة .

وكان على بديع أن يجتاز الغابة في عودته .

وعليه بالتالي أن يجابه « الارواح » .

وعاد بديع إلى الوقوف .

وراح يعمل على إقناع بهاء بالعودة وإياه .

إلا ان بهاء أصر على الرفض ، فهو عازم على الدخول إلى القصر وقضاء الليل فيه .

هذا هو قصره ، القصر الذي تركه له عمه ..

أيتخلى عنه ؟..

لا ! بهاء المواد عازم على قضاء حياته في القصر .

لن يعود عما عزم عليه .

مستحيل مستحيل ..

وقال بهاء :

ــ أنا لا أعود يا بديع ، لن أعود معك . إذا شئت أن ترجع من حيث أتيت فلك الخيار . أما أنا فلن أعود . لقد وصلت إلى قصري . وفي قصري الموحش النائي ، البعيد ، الكئيب ، الكئيب سأقضي ما بقي من عمري على هذه الارض .

وكان بديع يرتجف من الخوف ..

وكادت ركبتاه تهويان به إلى الارض .

إلا ان بهاء تقدم منه وأمسك بيده ليقول :

ـ لا تخف لا تخف . تعالَ تعال .

وتمتم بديع :

ـ إني أؤكد لك ان الارواح مقبلة الينا من الغابة . هـــذه الأرواح فتكت بعمك وأخفت جثته ، وهي تريد الآن ان تفتك بنا وتخفي جثتينا . أنا ما زلت شاباً . ولست مستعداً أن أتخلى عن حياتي بهذه السهولة . فإن شئت أنت أن تتخلى عن شبابك وتذهب فريسة سائغة للأرواح فلك ملء الاختيـار .

فقهقه بهـاء .

وقهقهاته زادت في غضب بديـع ، وفي حنقه ونقمته .

وانفجر بديـع غاضبـاً ليقول :

ـ أنت مجنون . هل يمكن لانسان أن يعيش مـع المجانين . عش في جنونك وحدك ودعني أعود إلى بيروت .

قال بهـاء :

ـ عد ، عد وحدك ، أما أنا فلن أعود .

قال بديـع :

ـ عد معي الآن إلى المدينة . ثم عد وحدك إلى هنا . أنا أوصلتك إلى القصر ويتحتم عليك أن تعيدني إلى حيث كنت .

وفي هذه الاثنـاء اقترب الحفيف منها .

وكان خوف بديـع وجزعه يزدادان باقتراب ذلك الحفيف .

وفجـأة انجلى سر الحفيف .

ووثبت هرّة بيضاء من بين الادغـــال اليهما ، وهي ترسل

مواءها الحزين .

وأدرك بهاء أن تلك الهرة هي هرة عمه .

وأنها جائعة .

وان الفلاحين أهملوا أمرها بعد موت الشيخ المسكين .

وضحك بهاء .

والتفت الى صديقه بديع يقول : هـــذا مصدر الخفيف يا يا بديع ، أرأيت أن ليس ثمة أرواحاً في هـذا القصر ، ولا من يحزنون...»

وارتاح بديع وقد شاهد الهرة البيضاء .

إلا ان الخوف عاوده ، وقد شاهد الهرة تقترب منه.وتمتم :

ـ ألا يجوز ان تكون الارواح اتخذت شكل هرة لتقترب منا ؟ .

وانفجر بهاء غاضباً :

ـ يا لك من رجل محدود الفكر ، بسيط القلب يا بديع . أي ارواح هي هذه التي تتكلم عنهـا ! ثق يا أخي ان الارواح لن تظهر لك ولن تشاهدها ، إلا وقد انعتقت روحك من هذا الجسد الفاني . الروح لا ترى إلا الروح . أمـا الجسد المادي فلا يرى إلا المادة . لا تخف ، لا تخف . تعـال .. تعال .

وأمسك بهاء بيد بديع يشدها ، ويدخل به إلى حديقـــة القصر الغناء .

وكان الظلام قد بدأ يدحر جيوش النور ويبسط جناحيـه على تلك الربوع مرسلاً أطيافه البعيدة ، غامراً الجبال والوديان

والتلال والغابات بأشباحه السوداء .

وكانت أبواب القصر كلها مشرعة .

فالفلاحون خافوا الدخول إلى القصر ، بعد ان انتشر نبأ الارواح الشريرة .

وراحوا يبحثون عن وريث شيخ قصر الجماجم ، عن بهاء ، ليدعوه إلى استلام قصره وإبعاد الأرواح عنهم .

ودخل بهاء إلى القصر على مهل .

وتبعه بديع ، والخوف مرتسم على عينيه ، ظاهر في خطواته وتمتماته وهمساته

وكان القصر غارقاً في الظلام .

فأشعل بهاء عود ثقاب وراح يبحث عن مصباح ، او عن شمعة ، او عن قنديل زيتي .

وطال بحثه .

وطاف البهو الخارجي من القصر .

ثم دخل الى الرواق .

ثم الى غرفة الاستقبال .

وكادت علبة الثقاب تخلو من العيدان ، وبهاء لم يهتدِ إلى مصباح ، ولا إلى شمعة .

وأخيراً انتزع من جيبه بعض الاوراق وراح يحرقها مستعيناً بنورها على السير في ردهات القصر وممراته وغرفه ، باحثاً عن المصباح .

وكان بديع يتبعه على خوف وارتعاش .

وكلما سمع بديع همسة او أحس بنسمة هواء تمتم :

– الارواح ، الارواح ، اطردها يا رب وابعدها عنا يا إله السماء .

وراح بديع يصلي .

ويتمتم بالآيات المقدسة ، مستعيناً بهـــا على طرد الارواح الشريرة المرعبة المخيفة .

واخيراً ، وبعد طويل تفتيش عثر بهاء على مصبـــاح زيتي أشعله .

ثم حمله وراح يطوف انحاء القصر ، متفقداً محتوياته وأثاثه وأغراضه ومفروشاته .

وكان كل شيء على حاله .

فكأن شيخ قصر الجماجم لا يزال يعيش في قصره .

كانت مفروشات القصر ورياشه رائعة ثمينة .

ومعظمها من المعادن الثمينة

او من المنسوجات النفيسة .

او من الخشب النادر المثال .

وأعجب بديع بهذه الرياش وبتلك المفروشات .

وكان ثمة تماثيل عدة من الرخام ، ومن البرونز رائعة الجمال .

وفي غرفة فسيحة الأرجـــاء من غرف القصر شاهد بديع جمجمة بشرية موضوعـــة باتقان على طاولة صغيرة ، فذعر .

وعاد الى الولولة :

ـ اريد ان أعود ، اريد ان اعود ، الآن عرفت سبب تردد الارواح إلى هذا القصر . وعرفت ايضاً السبب في إطلاق إسم الجماجم على هـــذا القصر . أتريد ان تعيش مع الجماجم والموتى ؟ لا ، لا ، أنا لن أنام هنا . لن انام .

وابتسم بهاء ، وقاد بديعاً الى غرفة النوم وقال له :

ـ هنا . هنا ستنام الليلة يا بديع .

ـ والارواح ؟

ـ لا تخف ، لن تمسك بسوء .

واستلقى بديع على سرير .

واستلقى بهاء على آخر .

فالتعب أنهكهما .

والسير الطويل أتعب ارجلهما وأثقل جسميهما .

واستسلم بهاء للنوم فوراً .

أما بديع فلم يغمض له جفن ، بل راح يرهف اذنيه مستمعاً لكل همسة ، مصغياً لكل نسمة ، ولكل حركة في ذلك القصر الفسيح .

ومضى الليل في المسير ، وكل شيء هادىء صامت هاجع في قصر وادي الجماجم .

وكاد الليل ان ينتصف ، وبديع على قلق وحيرة وأرق .

اخبار الارواح الشريرة التي سمعها ابعدت النوم عن عينيه .

وبعث القلق إلى قلبه ، والأوهام إلى رأسه .
ومضه السهر .
وأتعبه الأرق .
وبدأ الكرى يداعب جفنيه .
فراح يقاوم الكرى محاولاً إبعاد النوم عنه .
فهو يخاف وثوب الارواح الشريرة اليه ، وهو في غفلة الرقاد ، فتطبق على عنقه بأيديها القوية الشديدة وتغرز اظافرها الطويلة الناتئة في وجهه ورقبته وصدره ، وتقضي عليه .
وقاوم بديع النوم طويلاً .
إلا انه لم يستطع المقاومة حتى النهاية .
فأطبق النعاس جفنيه بيده السحرية الناعمة واستسلم للرقاد .
وانسابت الاحلام في رأسه .
فشاهد شيخ قصر الجماجم بشعره الابيض الناصع ، وقامته الفارعة وظهره المحدودب ، ويديه النحيلتين البارزتي العظام ، وخطواته المضطربة الواهية .
وكان الشيخ يقترب منه مقهقهاً على جنون ..
وذعر ...
وحاول الهرب .
إلا ان الشيخ كان قد اقترب منه .
ووقف قربه يقهقه .
وأخذ بديع يحاول الكلام .

واستطاع ان يتكلم بعد جهد كبير فقال : « رحماك يا عماه رحماك لا تقتلني » .

وأجاب الشيخ :

« لا لا لا ، أنا لن اقتلك يا ابني ولكن قل لابن اخي بهاء ان يهرب من هذا القصر . اهربا .. اخرجا من هنا حالاً حالاً حالاً حالاً » .

واستفاق بديع مذعوراً ..

وأخذت اسنانه تصطك من الفزع للحلم الرهيب ..

وعاد الأرق ...

واستوى في سريره يحدق بالظلام على خوف واضطراب .

وإذا به يسمع وقع خطوات تتكسر في اذن الليـل البهيم ..

وكانت الخطوات قادمة من خارج القصر .

فتسمر بديع في سريره .

هذه الخطوات هي خطوات الارواح :

اللهم نجنا منها وأبعدها عنا يا أرحم الراحمين .

وبدأت الخطوات تقترب من غرفة النـوم ..

وكلما تقدمت الخطوات منه ازداد خوفه .

ورغب في إيقاظ بهاء .

إلا انه خشي ان يكون واهماً ، وان تكون تلك الخطوات التي يسمع وقعها حلماً ثقيلاً ، فيضحك بهـاء منه .

إلا ان الخطوات وصلت الى غرفة النوم .

وإذا ببديع يرى شبحاً طويلاً .

إنه مارد ينتصب في باب غرفة النوم .

وذعر بديع .

وأطلق صرخة داوية تجاوب صداها في ذلك القصر الموحش الكئيب العالي ..

واستفاق بهاء :

ـ بديع ! .. ما بك ؟

وتمتم بديع :

ـ انـ .. انـ ..انـ .. انـ .. انظر !

ونظر بهاء .

فاذا به امام الشبح المارد الطويل ..

وراح بهـاء يحدق بالمارد ، وقد ايقن ان ثمة سراً رهيبـاً في ذلك القصر .

وكان المارد الجبار واقفاً في الباب لا يتحرك .

فهو لا يتقدم ولا يعود

وكان مجللاً بالسواد ، من رأسه حتى اخمص قدميـه .

وكان الشبح ينظر الى بهاء ، وإلى بديع فتلمع عينـــاه في الظلام كأنهما جمرتان متقدتان .

ورأي بهاء ان يكشف سر ذلك المارد الطويل القامة المتقد العينين .

فراح يبحث عن علبة الثقاب ليضيء الظـلام ويكشف سر

الشبح الرهيب .

وكأن الشبح أدرك قصد بهاء فانسل من باب الغرفة .

وتراجع الى الوراء مختفياً في الظلام الدامس البهيم ، تاركاً صدى خطواته تتكسر في الظلام ، فتزيد رهبة القصر الحزين رهبة ، وسكوته سكوتاً ، ووحشته وحشة وعبوساً

وترسل الخوف والفزع والاضطراب في قلب بديع ، الذي كان جالساً في سريره وهو يرتجف من الخوف .

ونهض بهاء من السرير مفتشاً عن علبة الثقاب .

وراح بديع يتمتم بخوف :

– بهاء ! بهاء ! لا تخرج من الغرفة ، الارواح تحتل القصر ستفتك بك ، عد إلى هنا ، لا تتركني وحدي هنا ، لا تكن مجنوناً يا بهاء ، لا تكن مجنوناً .. لا تخاطر بحياتك . رفقاً بشبابك عد ، عد ، عد .

إلا ان بهاء لم يعد .

بل خرج من غرفة النوم منغمساً في الظلام إلى الشرفة .

وراح يمتع نظره بجمال الوديان والجبال والتلال ، والوهاد ، والاحراج ، والصخور الغارقة في حضن الظلام البعيد .

وكان يفكر .

إنه يفكر بذلك الشبح الذي زار القصر :

من تراه يكون ؟ .

وماذا جاء يفعل في القصر ؟ .

من المؤكد ان ثمة سراً غامضاً يجب كشفه .

لهذا الشبح قصة لا تنتمي الى الارواح بصلة، ويجب الوقوف على قصة ذالك الشبح المخيف .

وطالت وقفة بهاء على شرفة القصر .

وكان الهواء عليلاً ..

والليل هادىء النسمات ، بعيد الوحي والخيال .

والظلام ، ظلام الليل ، يحتضن الجبـال والوديان برفق وحنان ..

وكل شيء يوحي الرهبة والخشوع .

وينطق بعظمة الله وبمجده وجلاله .

وشعر بهاء بحاجة إلى الصـلاة .

فجثا على الشرفة وغرق في صلاته وخشوعه وتفكيره .

وعندما بدأت خيـوط الفجر الوردية اللون تكحل مقلة الليل وتنسج ثوب الصباح الجميل ، دخل بهاء إلى القصر ، وعاد إلى التفتيش في غرفه وردهاته وأقبيته ودهاليزه .

ونهض بديع من نومه .

ولحق به ..

وكان في حالة ذعر شديد .

فراح يعمل على إقناع صديقه بالعودة إلى المدينة ، قال :

– هل بقي في قرارة نفسك أي شك في وجـود الارواح ؟ أتريد ان تعيش بين الأرواح المرعبـة المخيفة ؟

وضحك بهاء كمادته وقال :

ـ لا تكن سخيفاً يا بديع هل يمكن للارواح أن تحرمك لذة الحياة وبهجتها وجمالها ؟

قال بديع :

ـ ألم تشاهد الشبح في الليل ؟ إني أقسم لك انه ما جاء إلى هنا إلا ليفتك بنا بعد ان نقمت الأرواح علينا لأننا عكرنا عليها صفو هنائها وراحتها في قصرها هذا . . يجب ان نعود ، يجب أن نعود .

قال بهاء :

ـ ثق يا بديع ان المارد الذي رأيناه ليلاً ليس روحاً ولا شبحاً ، انه مثلنا من لحم ودم ، إنه يحمل سراً في صدره ، وأنا لن ارتاح إلا بعد ان أكشف غوامض سره . .

فاشتد الذعر ببديع ، وقال :

ـ لقد شاهدت عمك الشيخ في الحلم ، وكان يقهقه ، وقد دعاني للخروج من القصر ، قال لي : قل لابن أخي بهاء ان يخرج حالاً من هذا القصر » .

قال بهاء :

ـ الاحلام وليدة المخاوف والأوهام ، ما تخافه تراه في الحلم ، وما تريده تصوره لك الاحلام بين يديك . أنت تريد الخروج من القصر فجاءك عمي ، طيف عمي ، في الحلم يدعوك للخروج .

ومضى بديع في محاولته إقناع بهاء بالخروج من القصر .

إلا ان بهاء أصرّ ، وقال :
- هنا سأحيا وهنا سأموت .
وراح بهاء يفتش في صناديق عمه وفي أدراجه .
إنه ليبحث عن المال .
عن الميراث الضخم الذي تركه له عمه .
وكان بديع يشاطره البحث والتفتيش .
ووجد بهاء بعض الاوراق والسجلات التي تثبت أن ثمة في مصارف بيروت مبالغ من المال بإسم عمه .
ولكن بهاء كان يعلم يقيناً ان تلك الاموال الطائلة ليست سوى جزء ضئيل من ثروة عمه الكبيرة .
هناك كمية كبيرة من الذهب تركها عمه .
وليس ثمة من يعلم أين أخفاها .
وراح يبحث عن ذلك الذهب في غرف القصر وفي الدهاليز .
ودعا بهاء صديقه بديعاً لمرافقته إلى أقبية القصر .
وتردد بديع في اول الأمر .
إلا انه أذعن لمشيئة صديقه اخيراً .
وسار برفقته ..
ومشيا في الدهاليز المظلمة مستعينين بمصباح شحيح النور .
وكانت تلك الدهاليز مظلمة ، نتنة ، طويلة .
وكلها تؤدي الى الأقبية المنتشرة تحت القصر المنيف .
وسارا على مهل .

ووصلا إلى قبو فسيح الأرجاء .

ودخلا إلى القبو .

وشاهد بهاء براميل عدة مبعثرة في ذلك القبو ، وبعض الأثمار المجففة ، وأكياس الحنطة .

وكان في ذلك القبو آثار أقدام تدل على ان ثمة أشخاصاً عدة دخلوا اليه .

ومن ذلك القبو وثب بهاء وبديع إلى قبو آخر .

وكان ذلك القبو مخصصاً للحطب ، وللفحم .

وكانت أكداس الحطب ترتفع الى السقف .

وأكياس الفحم مكدسة فوق بعضها

ووراء اكياس الفحم وأكياس الحطب تعالى حفيف بعيد غريب ، يرسل الرعشة في النفوس والرهبة في القلوب

وإذا بالهواء يهب رطباً في ذلك القبو .

فحاول بديع العودة ، وقد أخافه الحفيف ، وأرهبه الهواء.

إلا ان الهواء اشتد فأغلق باب القبو الكبير عليهما .

واشتد الذعر في قلب بديع .

وازداد ذعره ، وقد شاهد جمجمة وهيكلاً بشرياً من عظام.

وأيقن انهما قد دفنا في ذلك القبو ، وان نصيبهما لن يكون بأفضل من نصيب صاحب الهيكل البشري .

وجلس بديع فوق كيس فحم ، وأجهش بالبكاء .

أما بهاء فقد اخذ يعمل على فتح الباب الكبير الذي اغلقه الهواء .

وكان الحفيف يشتد خلف أكياس الفحم واكداس الحطب

والهواء ما زال يهب رطباً في القبو المظلم ، الموحش ، الفسيح .

ومضى بهاء العواد في محاولته فتح باب القبو .

وراح بديع يحدق في مصدر الفحيح

وإذا به يطلق صرخة مرعبة ويصيح :

– بهاء ! ، بهاء ! ، انظر ! ، انظر ! ، انظر يا بهاء !

ونظر بهاء فشاهد المارد . .

المارد الأسود الطويل ، يخرج من وراء أكياس الفحم واكداس الحطب يجلله السواد من رأسه حتى اخمص قدميه .

وكانت عيناه تلمعان .

وكان يسير على مهل نحو بديع .

فأخذ بديع يرتجف من الخوف .

وحاول المضي في الصياح .

إلا انه تلعثم ، وتحطمت الكلمات على شفتيه .

ووقف بهاء يحدق في المارد .

ولم يداعب قلبه الخوف ، بل راح يتمتم :

– من انت ؟ من انت ؟ ماذا تريد ؟

ولم يجب المارد .

بل كان يرسل صفيراً أشبه بفحيح الأفاعي ، وهو يسير .

وإذا بالمصباح الشاحب النور ينطفىء في يد بهاء .

وأصبحا مع المارد الأسود المخيف وحدهمـــا في قبو مظلم رهيب ، موصد الباب .

واشتد الذعر ببديع .

وتلاشت قواه .

وشعر بأن الأرض تميد به .

أما بهاء فقد وقف مكانه لا يتحرك ، ولا يعير المارد أدنى اهتمام .

وسار المارد نحو الباب المقفل فأمسك به وشده بقوة .

و ُفتح الباب فجأة بين يدي المارد .

وخرج المارد تاركاً الباب مفتوحاً .

وسار بهاء وراءه .

أما بديع ، فقد راح يصرخ :

بهاء ! بهاء ! بهاء . . خذني معك ، لا تتركني هنا !

وكان يود بهاء أن يلحق بالمارد إلى الخارج ليقف على حقيقته .

إلا ان صراخ بديع أهاب به الى العودة .

وعاد . .

وأمسك بيد بديع يساعده على المسير .

واتكأ بديع على يد بهاء .

وسار وهو يرتجف من الخوف والفزع .

وكان المارد قد اختفى .

ولم يستطع بهاء إدراكه بسبب بطء سير بديع .

ووصل بهاء بصديقه بديع الى غرفة النوم .

فاستلقى بديع على السرير وهو يئن ويتمتم :

– عد بي من حيث أتينا . لن أقيم في هـذا القصر المسكون لن أقيم . أتريد أن تقبض الأرواح الشريرة روحك ؟ ألم تشاهد بعينك الشبح الأسود الرهيب ؟ .. ألم تسمع حفيفه ؟ ألم تلمس بيدك صحة ما قيل لنا حول الارواح . لا أريد ان أقيم في هذا القصر المخيف ، لا اريد .

وابتسم بهاء وتمتم :

– لا تخف يا بديع ، لا تخف .

وهدر بديع على غضب :

– لا تخف ، لا تخف ، ماذا تريد كي تخاف ؟ أتريد أن تجثم الارواح الشريرة على صدرك وأن تطبق بأيديها القوية وبأظافرها الناتئة على عنقك وتخمد انفاسك كي يتسرب الخوف عندئذ الى قلبك ؟ أنا خائف . نعم أنا خائف ، وأي إنسان يرى ما رأيت ويسمع ما سمعت ولا يموت من الخوف؟

وقهقه بهاء على ارتياح وقال :

– انا سأبعد الأرواح الشريرة عنك يا بديع ، ألا تثق بي ؟

وعاد بديع إلى الاستعطاف :

ـ رحماك ، رحماك يا أخي بهـاء لا تعرض نفسك وتعرض صديقك الحبيب بديـع للخطر فلنرجع إلى بيروت حيث نعيش هناك عيشاً هانئاً مطمئناً .

إلا ان بهاء لم يجب بديعاً إلى طلبه .

لقد عزم على العيش في وادي الجماجم ..

ولن يتزحزح عما عزم عليه ..

وكانت الشمس قد بدأت تطـل من وراء الجبـــال مرسلة خيوطها الذهبية خلال أغصان الغابة الى القصر .

فخرج بهاء الى شرفة القصر يمتع نظره بجمال الطبيعة الرائع الفتان ..

وأقام على انتظار .

إنه ينتظر حضور احد الفلاحين ، ليقف منه على تفاصيــل موت عمه واختفاء جثته .

ولم يطل انتظاره ..

فالفلاحون توافدوا عند الظهر للسلام على بهاء .

وكانوا قد ابتعـدوا عن القصر على اثر الشائعات المتضـاربة حول الارواح الشريرة المتربعة في قصر وادي الجماجـــم على الرحب والسعة .

وراحوا يروون لبهاء ما شاهدوه ومـا سمعوه عن الأرواح وعن اختفاء الشيخ .

وكلها اخبار لا تختلف عما سمعه بهاء .

الارواح الشريرة كانت تظهر في الليل فترقص وتعربد في القصر ، وهي الأرواح التي اختطفت الشيخ وأخفته وحملته الى عالمها المجهول القرار .

ولكن ما قاله الفلاحون لم يقنع بهاء العواد .

فهو يريد ان يقف على جثة عمه .

وما دامت جثته غير موجودة فليس هناك ما يثبت موته .

وعزم بهاء على البحث عن عمه .

يجب ان يجده ميتاً او حياً . .

وراح بهاء يستطلع آخر أنباء عمه من الفلاحين والمزارعين والعمال .

والأنباء كلها واحدة .

كانت تقول : ان شيخ قصر الجماجم اختفى بين الأرض والسماء ، والاعتقاد السائد في تلك الربوع هو ان الارواح الشريرة فتكت بالشيخ لأنه كان يضايقها بإقامته في القصر ، ثم حملته إلى مقرها المجهول .

ولكن بهاء لم يكن يعتقد بقدرة الأرواح الشريرة على القيام بمثل هذه الاعمال الأرضية .

ولذلك فقد أصر على وجوب إيجاد عمه .

واتصل بهاء بالسلطات اللبنانية .

والسلطات يومئذ بإدارة فرنسية .

فالحرب الكونية الاولى انتهت منذ سنين والفرنسيون ، هم

المسيطرون على لبنان .

وأطلع بهاء العواد السلطات على قصة اختفاء عمه ، طالباً اليها مساعدته في البحث عن شيخ قصر الجماجم .

والسلطات مثـل بهاء .

لم تكن تؤمن بمقدرة الأرواح الشريرة على القتـل وإخفـاء الجثث .

لذلك فهي قد اهتمت كل الاهـــتمام للأمر وأوفـدت أحد رجالها الى وادي الجماجم للبحث عن الشيخ الضائع الأثر .

إلا انرجل الأمن المكلف بالبحث عن الشيخالعواد اختفى .

توجه إلى وادي الجماجم .

واتصل بالشاعر بهاء وببعض الفلاحين .

ثم انصرف الى وضع تقرير مسهب باتصـالاته .

وعاد إلى بيروت لاطلاع رؤسائه على تقريره .

إلا انه لم يصل إلى بيروت .

وعندما بحث رؤساؤه عنه علموا انه ضاع فيوادي الجماجم .

واشتد الذعر بأبناء تلـك الربوع ، وقد انتشر نبأ اختفاء رجل الأمن ا .

وكان أشد الجميع ذعراً صديق بهاء بديع .

واهتمت السلطات اهتماماً شديداً للأمر .

وأوفدت رجلاً آخر هو المفتش عادل البسام :

وعادل شاب في مقتبل العمر ، ذو قوام رشيق ، وجـــال

رحيب، وقوة بأس وذكاء .

وانطلق عادل الى وادي الجماجم ، وقد عزم ألاّ يعود إلا وقد اكتشف السر الرهيب الغامر تلك الربوع الهادئة الهاجعة بين أحضان الجبال والوديان ، على خوف ، وقلق ، واضطراب.

ووصل المفتش عادل البسام الى وادي الجماجم .

وشخص توا الى القصر الرهيب ، الجاثم على كآبة وألم وشجن .

واستقبل بهاء العواد المفتش الشاب بالترحيب .

وأطلعه على كل ما جمعه من معلومات .

وتبرع بديع بتقديم معلوماته الخاصة للمفتش عادل البسام ،

– الارواح تحتل هذا القصر يا سيدي ، انها لتفتك بكل من تسوّل له نفسه الدخول إلى هـذا القصر المنيف . فهي قد فتكت بالشيخ الوقور ، وفتكت بزميلك مفتش الامن ، ولا اعلم لماذا تكرمت علينا وسمحت لنا بالاقامة في هـذا القصر دون ان تفتك بنا حتى الآن . إذا شئت ان تنجو بنفسك وبشبابك فما عليك إلا ان تعود حالاً من حيث أتيت .

وضحك المفتش من كلام بديع ، وقال له :

– لا تخف أنا سأحميك من الارواح ، وسأقضي عليها الليلة، لقد عزمت على ان أنام الليلة معك في هذا القصر ايها السيد بديع ، وسترى كيف يستطيع المفتش عادل البسام ان يبدد

هذه الاوهام والشعوذات .

قال بديع :

- أنت حر يا أخي في المخاطرة بنفسك ، أنا حذرتك فافعل ما يطيب لك .

وعندما هبط الليل ، وبسط الظلام جناحيه على تلك الانحاء كان المفتش عادل البسام يحشو مسدسه بالرصاص ويستلقي على سرير في غرفة من غرف القصر ...

بانتظار قدوم الارواح .

ومضت الساعات من الليل سريعاً وعادل البسام في استلقائه على السرير ، في سهره ، وفي ترقبـــه قدوم الارواح الشريرة الكريهة الشيم ..

وبدأ النعاس يداعب أجفان المفتش النشيط .

وبدأت أصابعه القابضة على المسدس ترتخي وتفلت الزناد .

وإذا بعادل يستسلم للكرى ، والفجر يكاد يتأهب للبزوغ .

وما ان أغمض عينيه حتى هدر صوت استغاثة اهتزت لها جنبات القصر العالي المنيف : « إلينا ، إلينا .. »

وكان الصوت صوت بديع .

واستفاق عادل على غضب .

وأمسك المسدس .

وأسرع نحو غرفة بديع .

ووصل إلى الغرفة فاذا ببديع جالس في سريره وهو يرتجف

من الخوف .

وكان بهاء واقفاً يحاول إسعافه ومده بالمنعشات .

وسأل المفتش عادل البسام : بهاء ، ماذا جرى ؟

وقال بهاء :

– لقد شاهد بديع المارد الجبار الذي يغشو القصر كل ليلة ، فخاف واستنجد بنا .

وتمتم بديع بخوف عظيم :

– المارد الجبار حاول خنقي ، لقد اقترب من سريري ومد يديه القاسيتين الطويلتين إلى عنقي ، وراح يضغط على رقبتي بكل قوة محاولاً القضاء عليّ . وحاولت الاستنجاد في بادىء الأمر إلا ان الكلمات اختنقت على شفتي . وأخيراً تمكنت من إطلاق صرخة الاستنجاد ، وعندئذ ، عندئذ فقط ، عندما صرخت أفلت المارد عنقي وخرج من الباب على مهل ، وكأنه يسير الى وليمة .

وقال عادل :

– الى أين اتجه المارد ؟

قال بديع :

– لست أدري ، كل ما أعرفه هو ان المارد حاول خنقي . انقذوني منه إنقذوني . اريد ان اعود الى المدينة . أنا لست قادراً على الحياة مع الارواح الشريرة في هذا القصر .

وكان بديع في بكائه وعويله واستنجاده ، يثير الضحك والسخرية .

واندفع عادل البسام الى غرف القصر يبحث فيهـا عن المارد الجبار .

واندفع الشاعر بهاء معه .

وقال المفتش :

ــ من المؤكد ان المارد مـا زال في القصر ، فهو لم يخرج ، يجب القبض عليه لمعرفة حقيقته ..

وانطلق الاثنان ، عادل البسام وبهاء العواد ، الى جميـع الغرف يفتحونهـا ..

ثم انطلقا الى الحديقة باحثين عن المارد الأسود الجبار ..

إلا انهما لم يقفا منه على اثر ..

وكانت أنوار الفجر البعيد قد بدأت تخضب الظلام ، ظلام الليل الدامس بنورها الارجواني الجميل ..

والازهار بدأت تنفح شذاها الفواح العبير ، فتعطر حنـايا الفجر البعيد ..

والاطيار بدأت تتنقل على الأغصان غامرة تلك الجبـال والوهاد والوديان بأنغامها الشجية ، وبألحانها الحالمة العصماء ..

وسكرت الطبيعة بأنغام الطيور ، وعطر الزهور . وأحلام الفجر البعيد الفواح العبير .

فجلس بهاء العواد على مقعد حجري أبيض في الحديقة ... وراح يصلي في أعمق اعماق روحه ..

ممتعاً نظره بمفاتن الطبيعة ..

خاشعاً امام قدرة الخالق العظيم الذي أوجد السماوات والارض ومن في السماوات والارض ، وسن لهم الشرائع والقوانين والانظمة والدساتير ..

أما المفتش عادل البسام ، فقد جلس يفكر بطريقة يستطيع بها القبض على المارد الجبار ..

من المؤكد ان هذا المارد إنسان مثلنا .

وانه يحمل في صدره سر اختفاء شيخ قصر الجماجم الوقور.

وطلع الصباح ..

فانزوى بديع في غرفته لا يجرؤ على الخروج منها ..

فهو يخاف الارواح الشريرة ..

وقد بات على يقين انها تحتل القصر . وانها عازمة على الفتك به ، وبصديقه الشاعر ، وعادل البسام .

وانطلق عادل الى أكواخ الفلاحين ومنازلهم وحقولهم .

وأخذ يتصل بكل واحد منهم على حدة ..

محققاً معه ، توصلاً لمعرفة مصير الشيخ الضائع الأثر ..

إلا ان كل الافادات كانت متشابهة ..

ولم يتوصل عادل البسام الى بصيص نور يضيء امامه سبيل الوصول الى معرفة الحقيقة .

وقضى عادل البسام طيلة نهاره في البحث والتدقيق ..

وفي المساء عاد الى القصر ، فتناول طعام العشاء مع بهاء وبديع في غرفة الطعام ..

ثم إنتقلوا الى الشرفة حيث قضوا سهرتهم يمتعون انظارهم

بمناظر الغابات والاحراش والوديان ، وهي غارقة في حضن الليل البهيم ..

وقبل منتصف الليل بقليل دخلوا إلى القصر ليناموا ..

إلا ان بديعاً أبى أن ينام وحده في الغرفة ..

وأصر على أن ينام في غرفة مفتش الأمن .

وابتسم عادل البسام وقال له :

ـ لا بأس ، تعال ، نم في غرفتي ، سأحميك من الارواح الشريرة الليلة ، لن أدعها تصل اليك ..

وآوى بهاء إلى سريره .

ودخل عادل الى غرفته

وتبعه بديع

واستلقى كل منهما على سريره .

وغرق بديع في نوم عميق .

فهو مطمئن إلى النوم في غرفة المفتش ..

بديع البسام سيمنع الارواح الشريرة من الاعتداء عليه ..

لن تؤذيه ..

لن تخنقه ..

لن تمد اليه يداً وهناك رجل الأمن ، وقوته ، وشجاعته ، ومسدسه ايضاً ..

وأقام عادل البسام على سهر طويل ..

عادل لن يعرف طعم الرقاد ..

لا ، لن ينام و إلا وقد اكتشف سر المارد الجبار ..

وطال سهر عادل ..

وبدأت الساعة تميل إلى احتضان الفجر ..

والمارد الجبار لم يطل .

وأخيراً ..

وبعد طول انتظار سمع عادل البسام وقع أقدام خفيفة في بهو القصر ..

فأرهف أذنيه ..

وتأهب لأطلاق الرصاص ، وقد وضع يده على زناد المسدس متأهباً لشد الزناد وإطلاق الرصاص ..

وإذا بوقع الاقدام يقترب من باب الغرفة ..

وكان الباب مفتوحاً ..

فقد حرص عادل على ترك الباب مشرعاً ليغري المارد بالدخول الى غرفته ..

وفجأة وقف شبح طويل القامة متشح بالسواد في الباب ، محاولاً الدخول ..

وإذا بعادل يصوب المسدس الى الشبح ويطلق الرصاص .

وتراجع الشبح الى الوراء .

وراح يعدو في أروقة القصر .

وهب المفتش يركض وراء المارد المتشح بالسواد من رأسه حتى أخمص قدميه .

واستفاق بديع مذعوراً على دوي الرصاص ..
وراح يبكي كالاطفال ..
وأسرع المارد بالانزلاق نحو القبو سائراً في الدهـــاليز ...
وكان يسير عدواً بسرعة هائلة ..
وقد عجز بهاء وعادل عن اللحاق به .

ووصل المارد الى قبو النبيذ فدخل اليه ..
وتبعه عادل والشاعر ، فدخلا الى قبو النبيذ ..
وما ان دخلا حتى أوصد الباب وراءهما ..

وإذا بالمارد يدخـل من قبو النبيذ الى قبـو الفحم والحطب ويوصد الباب وراءه ايضاً ..
وأصبح المفتش والشاعر سجينين في قبو النبيذ ..
ليس لهما منفذ للخروج .

ولم يعلما كيف أوصد البابان ، باب الدهليز الى قبو النبيذ ، وباب قبو النبيذ الى قبو الحطب ..
وكل ما علما هو انهما سجينان ..
وراح عادل يعمل على فتح أحد البابين ..
إلا انه عجز ..
فأخذ يطلق الرصاص على الباب محاولاً تحطيمه ..
إلا ان الرصاص كان يستقر في الباب الخشبي المتـين المصفح بالحديد ..

وإذا بالاثنين ، المفتش عادل البسام والشاعر بهـاء العواد ،

يسمعان قهقهات غيلة ، وصوتاً رهيباً داوياً في ذلك القبو
الخيف مزمجراً :
« هنا ستموتان .. هنا ستموتان .. الارواح الشريرة ستنتقم
منكما انتقاماً رهيباً ايها الشقيان .. »
واستمر عادل البسام في إطلاق الرصاص على الباب محاولاً
تحطيمه للخروج من القبو ..
إلا ان الباب المتين لم يتحطم .
ووثب بهاء الى عادل يدعوه الى الكف عن إطلاق الرصاص
وقال :
- ليس ثمة فائدة من إطلاق الرصاص يا عادل فالرصاص لن
يحطم الباب ، احتفظ برصاص مسدسك فقد نحتاج اليه ..
وكان صوت المارد الجبار يتصاعد كالرعد من الخارج ، وهو
يهدد ويتوعد وينذرهما بهجوم الارواح عليهما والاقتصاص منهما
اقتصاصاً رهيباً .
ولم يخش الشابان تهديده ..
فهما على يقين من ان ليس ثمة أي روح شريرة تقوم بالاعمال
التي مثلت في قصر وادي الجماجم ..
بل هما كانا على يقين من ان المارد ليس إلا إنسان مثلهما ،
وانه لص كبير يقوم بتلك الشعوذات والاعمال ليخيفهما ويقصيهما
عن القصر ..
وانصرفا معاً الى فتح الباب .

إلا ان البـاب قاوم .

فلم يكن ليفتح أمـام محاولتهما .

وخشيا أن يقضيا جوعاً وعطشاً في ذلك القبو الموحش المظلم الكئيب .

وكان كل ما حولهما ظلام في ظلام .

والهواء رطب في ذلك القبو المخيف .

وتذكر عادل أنه يحمل في جيبه مصباحاً كهربائيـاً صغيراً فأمسـكه وأثاره ليستعـين به .

وشاهد خوابي وبراميل الخمر في ذلك القبو .

هذا القبو هو قبو النبيـذ .

هكذا كان يسميه صاحب قصر الجماجـم . والتفت عـادل البسام الى بهاء يقول : نستطيـع ان نطمئن إلى أننا سنحيا اسابيع عدة ما دمنا هنا في قبو النبيذ . سنشرب الخمر فيدفـع عنا الموت جوعاً وعطشاً أياماً طوالاً .

قال بهـاء :

– ولكن هل تقدّر لنا الحياة طويلاً في هـذا المكان ؟

قال عادل :

– من يدري ! قد لا يقدر لنا الخروج منـه الى الأبد

وعادا معاً إلى محاولتهما فتح الباب على ضوء المصباح الكهربائي

وقال بهاء ، بعد محاولة طويلة : فلندع محاولتنا فتح الباب

الى الصباح كي نستطيـع ان نحتفظ بنور المصباح لعلنـا نحتاج اليه في المستقبـل .

واستلقيا على الأرض يستريحان من عناء العمل ،

وكان صوت المارد الجبار قد اضمحل .

وساد السكون والهدوء في الدهليز .

فليس ثمة حركة ولا همسة ولا حفيف ولا صوت .

وانصرف كلٌ منهما الى التفكير في المصير المقدر لهما .

هل يمكنهما الخروج من ذلك المكان الشديد الظـلام ؟

أم ترى يقضيان نحبهما هناك ؟

وكانت فكرة الحياة تتغلب أبداً في رأسيهما على فكرة الموت من المؤكد ان الحياة ستكتب لهما وسينجوان من ذلك القبو .

سيتمكنان من فتح الباب والخروج

وعندئذ سينصرفان معـاً الى محاولة فتح أو تحطيم أحـــد البابين ، الباب المؤدي الى الدهليز ، أو الباب المؤدي الى قبو الحطب والفحم .

إلا ان تلك الأفكار . أفكار النجاة ، بدأت تتوارى لتحل محلها افكار اليأس بعد أن بدأ النـــور ، نور الفجر يتسرب من كوة صغيرة عالية الى القبو فيشاهدان ضخامة البابين وقوتهما ، واستحـالة تحطيمهما ..

وأدرك الاثنان ـــ عـــادل وبهـــاء - ان فتـــح البابين والخروج من القبو ضرب من المحـــال .

ومع كل اقتناعهما باستحالة تحطيم البابين فقـــد انصرفا الى المحاولة ، وراحا يعملان على تحطـيم او فتح أحدهما .

فأخذ عادل يعمل بوسائل شتى على فتح الباب المؤدي الى قبو الفحم ، في حين انصرف بهـاء إلى فتـح الباب المؤدي الى الدهليز .

إلا ان لا هذا نجح في مسعاه ولا ذاك .

الاثنان أخفقـا ..

والتفت عادل إلى بهاء يقول : ماذا يا بهاء ؟ مـــاذا ترانا فاعلـين ؟ .

وأجاب بهاء : لست أدري ، يا عادل أرى ان خروجنـا من هذا المكان المخيف صعب جـــداً . وأنت ؟ ألا ترى ما أرى أنا ؟

وأجاب عادل . وهذا ما أراه أنا . تعال نشرب قليـلاً من الخمر لعلّ الخمر يبعث فينا النشاط والقوة والأمل .

وأطبقا على « خابية » ملأى بالنبيذ المعتق يعبان منهـــا ولا يرتويان .

الفصل الثاني

أقام بديـــع النادر في غرفته بعد ان اطلق رجل الأمن عادل بسام الرصاص على الشبح تلك الليـــلة ولحق به ، على خوف وجزع واضطراب .

وكانت اسنان بديـــع تصطك من الخوف لا سيما بعد ان لحق المفتش عادل البسام بالمارد الجبار ولم يعـــد .

وأقام بديـــع على انتظار ممض ..

إنه لينتظر عـــودة عادل .

إلا ان انتظاره طال ، وعادل لم يعـــد .

وأيقن بديـــع ان المارد الجبار فتك بعادل كما فتك بزميـــله مفتش الامن الذي جـــاء قبله لاكتشاف جريـــة مصرع واختفاء شيـــخ قصر الجماجم ..

وأقام بديـــــع ينتظر بزوغ الفجر على أحر من الجمر كي ينهض من سريره ويتوجه الى غرفة بهاء .

ولم يكن يعلم ان بهاء ايضاً لحق بعادل وراء المارد الأسود الطويل ..

وما ان اطلت انوار الصباح ، حتى راح بديع النادر يتمتم بعض الآيات الروحية محاولاً طرد الارواح الشريرة بها .

ثم نهض من سريره على خوف شديد وسار بوهن الى غرفة بهاء.

ووصل إلى الغرفة .

وراح ينادي من الخارج :

– بهاء ! بهاء ! اين انت ؟ يا بهاء ؟ رد عليّ يا بهاء ، أجبني.

ولم يجبه أحد .

فعاد إلى تمتمة الآيات الروحية .

ثم دخل إلى الغرفة ليرتد مذعوراً .

فهو لم يجد بهاء في سريره .

وأيقن كل اليقين ان الارواح لم تكتف بقتل مفتش الأمن وإخفاء جثته ، بل هي عمدت إلى الفتك ببهاء أيضاً وأخفت جثته ..

تماماً كما فعلت بشيخ قصر الجماجم ورجل الأمن السري .

وبدأت اسنانه تصطك من الخوف ..

وعزم على الخروج من ذلك القصر فوراً قبل ان يصل شر الأرواح الشريرة اليه .

فعاد ادراجه الى غرفته محاولاً ارتداء ثيابه والخروج من القصر وراح ، وهو يرتدي ثيابه ، يندب صديقه بهاء ويبكيه بأحر العبرات والدموع ، ويتمتم :

« يا ضياع شبابك الغض يا بهاء . لو أذعنت لرأيي وعدت معي إلى المدينة لما ذهبت طعماً للأرواح الشريرة ، يا لهف قلبي على شبابك يا حبيبي يا بهاء .. »

وكانت الدموع تنهمر غزيرة على خديه .

وكان حزنه شديداً ..

حتى كاد الحزن على بهاء يذهب من قلبه بالخوف .

وعاد إلى التفكير بصديقه الحبيب بهاء .

أيجوز ان يتركه في ذلك القصر الرهيب ويعود الى المدينة ، وسلمى ، حبيبة بهاء ، ماذا ستقول له ، وقد علمت انه ترك صديقه فريسة للارواح في ذلك القصر وعاد إلى بيروت ؟

وراح بديع يفكر بطريقة يستطيع بها اكتشاف مقر بهاء.

وطال تفكيره دون جدوى ..

وأخيراً ، وبعد تفكير طويل جال في خاطره فكر بعيد :

قبو النبيذ . ألا يجوز ان يكون بهاء في قبو النبيذ ؟

كل شيء يجوز ، فهو يعرف الطريق إلى قبو النبيذ .

ذلك الطريق الذي سلكه مع بهاء في اليوم التالي لوصولهما إلى القصر . ومن قبو النبيذ خرجا إلى قبو الحطب ، وفي قبو الحطب هاجمهما المارد الجبار .

ولكن دون الوصول إلى قبو النبيذ مخاطر وأهوال .

عليه ان يسير في الدهليز المظلم المخيف قبل وصوله إلى القبو .

فهل تقدر له النجاة في ذلك الدهليز ؟

ليجرب حظه .فهو ليس بأفضل من بهاء .

ولكن هل هو سيجد بهاء في ذلك القبو ؟

وإذا لم يجده ؟

وإذا هاجمته الأرواح أيستطيع ان يصدها وينجو من

أخطارها وقوتها وبأسها ؟

وطال تفكيره ..

واخيراً ، وبعد تفكير طويل عزم على الذهاب إلى القبو ، وليكن ما يريده الله .

وأسرع إلى مصباح من زيت يضيئه ويحمله ويسير في الدهليز وهو يرهف اذنيه لكل همسة ، ولكل حركة .

وكان الخوف الشديد يهز كيانه ويعبث به ..

ويبعث الوهن في ركبتيه والارتجاف الى يديه .

لقد كان في حال مؤسفة تثير الأسف والضحـــك في وقت واحد .

وكان بديع يسير على مهل ، وهو يرهف اذنيه لكل همسة ولكل حركة ولكل صوت .

وكان الهواء يهب بارداً في الدهليز .

ونور الصباح يتسرب ضئيلاً جداً الى الدهليز ، فيضعف نور المصباح الزيتي الشاحب

واقترب بديـع من باب قبو النبيذ ..

وشاهد الباب مقفلاً فازداد رعباً .

وأدرك ان المارد الجبار هو الذي اقفل الباب .

وعزم على العودة ادراجه قبل ان يلحق به المارد ويخمـــد أنفاسه .

وقفل راجعاً ادراجه بسرعة ..

إلا ان السرعة التي سار بها أثارت الهواء في الدلهيز فانطفأ

المصباح وأصبح بديع في الظلام .
ووقف بديع في الدهليز على رعب ، وقد انطفأ النور .
ولم يجرؤ على المسير ..
لا إلى الوراء ولا الى الأمام .
وشعر بحاجته الى البكاء فراح يبكي بصوت مرتفع فيذهب صوت بكائه في الظلام بعيداً ..
ويترك وراءه صدى متجاوباً في ذلك الدهليز على رنة وانطلاق ..
وسمع بهاء وعادل في قبو النبيذ صوت البكاء .
فأدرك بهاء ان الصوت صوت بديع .
ولاح له الأمل قريباً بالنجاة ، ما دام بديع في الدهليز ..
وراح يناديه بصوت عالٍ :
ـ بديع !. بديع !. بديع ! .
وسمع بديع صوت بهاء منادياً فدبت الجرأة في قلبه .
وهرول مسرعاً نحو باب القبو ، وهو ينادي : بهاء !. بهاء يا حبيبي يا بهاء أين انت ؟
وقال بهاء من داخل القبو :
ـ انا هنا ، انا هنا ، لا تخف يا بديع اقترب .. اقترب من باب القبو لا تخف ..
واقترب بديع من باب القبو ، وقال :
ـ اخرج يا بهاء ، اخرج ، انا خائف وحدي هنا .
وقال بهاء :
ـ لو اننا نستطيع الخروج لما بقينا دقيقة واحدة في هذا القبو

المظلم البارد النتن
- ألا تستطيع الخروج من القبو ؟ ولماذا ؟
- الباب مقفل يا بديع .
- ومن اقفله ؟
أقفله المارد .

- المارد ؟ أتريدني ان ابقى هنا والمارد يقفل الابواب ويفتك بالجميع . إذا كنت انت الجريء مع المفتش القدير لا تستطيعان التغلب على المارد الجبار اتريدانني أنا المسكين ان اتغلب عليه .
الى اللقاء يا بهاء الى اللقاء ايها الصديق الوفي العزيز ، سنجتمع في العالم الثاني ان شاء الله ، أنا ذاهب ، انا عائد الى المدينة .
وخشي بهاء ان يعـــود بديع من حيث أتى ، ويتركهما في ذلك القبو .
فقال له :
- لا تخف المارد يا بديع لقد فتكنـــا به المفتش عادل البسام اطلق الرصاص عليه وأرداه . انه هنا في هـــذا القبو أمامنا جثة هامدة ..
- صحيح ؟ . المارد الجبار مات ، ولا خوف منه إذن ؟
- بكل تأكيد . لا تخف ، افتح لنا الباب ، افتحه .
وأطبق بديع على الباب محاولاً فتحه .
وبديع ذو قوة هائلة .
فهو مفتول الساعدين ، طويل القامة عامر الصدر .
إلا انه جبان ، فهو يخاف حتى من أتفه الاشياء .

ولا يجرؤ على التصدي للأخطار .

وقد أدرك بهاء ان بديعاً يستطيع فتح الباب من الخارج إن هو أمن شر المارد وخيل اليه أنه مات .

وراح بديع يعمل جاهداً على فتح الباب إلا انه لم يستطع الى ذلك سبيلاً ، لأن الباب كان متيناً وكان من الخشب القوي المصفح بالحديد وهو مقفل إقفالاً محكماً .

وادرك بديع ان الباب لن يفتح بمجرد الشد به ، وانه بحاجة إلى مطرقة حديدية او الى منشار او الى آلة حديدية متينة فقال :

– الباب متين يا بهاء . لن استطيع فتحه بيدي ، سأعود الى القصر فأفتش عن آلة حديدية استطيع بواسطتها ان افتح الباب المتين ، سأعود حالاً .

وعاد ادراجه الى القصر ، وهو يغني :

– لن يخاف بعد اليوم وقد صُرع المارد الجبار .

الخطر من المارد توارى الآن .

سيرتاح بديع من شره ومن أهواله ..

ووصل بديع الى القصر .

وراح يطوف جميع غرفه وسراديبه باحثاً عن مطرقة او عن آلة حديدية يستطيع بواسطتها تحطيم الباب وإنقاذ رفيقه والمفتش من السجن .

ولم يطل بحثه .

ولا طال تفتيشه .

فقد عثر على مطرقة كبيرة تستعمـــل لتحطيم الحجـــارة وتكسيرها .

وهرول مسرعاً الى الدهليز في طريقه إلى قبو النبيذ ، وهو لا ينقطع عن الغناء والانشاد .

ووصل الى القبو .

وراح يعمل يجهد على تحطيم الباب .

وكان ينهال على الباب بالمطرقة الكبـيرة فتحدث الطرقات دوياً شديداً يذهب صداه بعيداً في ذلك الدهليز الطويل .

وطال عمل بديـع والباب لا يتحطم ولا ينفتح .

وبعد عمل شاق دام زهاء ساعة بدأت أقفال الباب تتحطم تحت مطرقة بديـع .

وبدأ الباب يتأهب للانفتاح .

وإذا بيدين كبيرتين طويلتي الأصابع تطبقان على عنق بديع من الوراء .

وتشدان العنق بقوة هائلة .

وذعر بديـع للمفاجأة ، وأطلق صرخة داوية اهتزت لهـا اركان ذلك الدهليز .

وسقط بديع الى الارض فاقد الرشد . .

وأدرك بهاء وعادل ، وقد سمعـــا الصراخ ان المارد الأسود خرج من قبـو الحطب وعـاد الى القصر ومن القصر سمع

طرقات المطرقة في الدهليز فأسرع الى الدهليز ليحول دون إنقاذهما .

ووثب عادل الى الباب يرفسه .

فبدا الباب يفتح تحت رفسات رجل الأمن .

مطرقة بديع حطمت الأقفال .

وأصبح فتح الباب أمراً سهلاً.

وأسرع بهاء الى مساعدة عادل .

وراحا يشدان بالباب بكل قواهمـا .

فتمكنا من فتحه بعد جهد طويل .

ووثبا الى الدهليز ليجـــدا بديع ملقى على الارض وهو مغمى عليه .

وحملاه وسارا به في الدهليز .

وصعدا الى القصر .

وهناك في غرفة النوم ، وضعا بديعاً على السرير .

وانصرف بهاء الى إسعافه بالماء وبالتدليك .

وأدرك بهاء ان بديعاً لم يفقد رشده إلا بسبب الخوف الشديد الذي انتابه ، بالرغم من ان أصابع المـارد كانت قد تركت أثراً في عنقه .

وبعد إسعاف طويل فتح بديـع عينيه على ذعر ، وتمتم :

ـ المارد الاسود الجبار .. المارد .. المارد ..

وقال بهاء :

ـ لا تخف يا بديع لا تخف ، المارد الجبار توارى عن القصر ،

لقد هرب ، لا تخف .. لا تخف .

ولكن الخوف كان قد استبد ببديع .

وكان يرتجف من الخوف بصورة تدعو الى القلق .

فعاد بهاء الى إسعافه وإلى تشجيعه :

ـ لا تخف ، لا تخف ، لا تخف .. أنت انقذتنا من الموت يا بديع ، انك لشجاع . لن تنسى لك هذا الجميل . نحن هنا لندافع عنك .

وتقدم عادل منه مشجعاً :

ـ نحن سنقضي على المارد الاسود . وهذا المسدس الذي أحمله كفيل باخماد أنفاسه . انهض ايها السيد بديع ، انهض واتكل على صديقك عادل .

واستوى بديع في السرير على ذعر واضطراب ، وتمتم :

ـ قبل ان تحميني احم نفسك . لقد كاد المارد يفتك بك وبهذا المجنون بهاء ، هذا المارد ليس من لحم ودم ، ليس من هذا العالم ، انه روح ، انه من العالم الثاني . لن يؤثر فيه رصاص مسدسك . انه ليهزأ بك وبرصاصك وبقوتك ، أنت ام تره . أنا رأيته وشاهدت أصابعه الطويلة تطبق على عنقي وتشده كأنها كلابتين قويتين . يا له من مارد مخيف مرعب صارع . إذا كنتما لا تزالان على بقية من العقل اخرجا حالاً من هذا القصر الذي تسكنه الارواح الشريرة واسرعا بالعودة الى المدينة قبل ان تفتك الارواح بكما وتقضي على شبابكما الغض النضير .

وضحكا : يا لك من شاب طيب القلب . أتخاف الأرواح وأنت من جسد وروح . لا تخف ، لا تخف .

وحاولا تشجيعه .

إلا ان بديعاً كان يرتجف من الخوف .

وعاد الى الالحاح في ضرورة الرحيل عن القصر قبل أن تفتك الارواح بهم وتقضي عليهم .

وقال عادل سائلاً :

– هل رأيت المارد الاسود أيها السيد بديع ؟

قال بديع:

– أجل لقد رأيته ، وأنا ما زلت حتى الآن ارتجف لهول منظره .

هل تستطيع ان تصفه لي ؟

– انه طويل القامة ، أسود الوجه ، أسود الشعر ، أسود الثياب ، فكأنه غراب مغموس بالليل . ليس هناك سوى عينين تلمعان في السواد فتخيفان الناظر اليهما او بالأحرى الناظرين اليه .

قال عادل :

وأين اتجه بعد ان حاول خنقك ؟

قال بديع:

– لست أدري . لقد اغمي عليّ بعد ان أطبقت أصابعه على عنقي ولم أعد أعي شيئاً .

والتفت عادل الى بهاء ليقول :

– انني لأوكد ان المارد لا يزال في الاقبية تحت هذا القصر.

وهو يحمل في صدره سر اختفاء عمك . يجب البحث عنه!!
والقبض عليه .
وخاف بديع خوفاً شديداً ، وكلام عادل يقع منه في الاذنين .
وحاول ردع الرجل عن عزمه .
إلا ان عادلاً شهر مسدسه بعد ان حشاه بالرصاص مجدداً
وسار الى الأقبية بطريق الدهليز باحثاً عن المارد .
ولحق به بهاء .
وأقام بديع في غرفة النوم يبكي ويولول .
فكأنه في مناحة عامرة بالأسى .
وانصرف الاثنان الى البحث عن المارة في الدهليز .
وكان بهاء يحمل المصباح ، وعادل يشهر المسدس .
وسارا في الدهليز دون ان يقفا للمارد على أثر .
ودخلا الى قبو النبيذ المحطم الباب الذي كانا مسجونين فيه يفتشان عنه .
إلا انهما لم يجداه .
وخرجا من قبو النبيذ ليدخلا الى قبو آخر .
ومن القبو الآخر خرجا الى قبو آخر .
ومن القبو الآخر خرجا الى غيره ايضاً .
وطافا اقبية عدة باحثين عن المارد ولكن دون جدوى .
وطال بحثهما دون ان يقفا على ما يشير الى وجود أي أثر للمارد المخيف .

وأخيراً عادا الى القصر ، في الطريق الذي اجتازاه ذهاباً .

ودخلا القصر .

وتوجها الى غرفة النوم حيث تركا بديعاً .

وكم كانت دهشتها عظيمة عندما وجدا الغرفة خالية خاوية.

بديع ليس في السرير وليس في الغرفة كلها .

وكان أثاث الغرفة مقلوباً رأساً على عقب .

مما يدل على أن معركة طاحنة جرت في تلك الغرفة .

وأدركا ان المارد الاسود اغتنم فرصة خروجها ، فوثب الى القصر واختطف بديعاً .

وطار به بين الارض والسماء .

وراح عادل يبحث في أرض الغرفة علـه يقع على أثر تركه المارد وراءه .

إلا انه لم يقع على شيء .

والتفت إلى بهاء يقول :

ــ انني اؤكد لك ان المارد لا يزال في هذا القصر مع بديع ويجب أن نبحث عنهما .

قال بهاء :

ــ انني أخاف ان يؤذي المارد بديعاً ، وأنت تعرف رفيقنا بديعاً فهو يخاف كثيراً ، ويخشى ظله .

قال عادل :

ــ ثق ان المارد لن يؤذي بديعـاً الآن ، وسنكشف مقرهما

قبل ان يتمكن من الفتك به . تعال معي نبحث عن بديع قبل فوات الأوان .

وسارا إلى الدهليز ، وهما يستعينـــان بنور شاحب أصفر اللون منبعث من قنديل زيتي عتيق .

وكان الظلام الشديد يغمر تلك الدهاليز والأقبية الممتــدة تحت القصر التي تنبعث منها رائحة العفونة والنتانة .

وطال بحثهما وتفتيشهما ولكن دون جدوى .

وأخيراً وصلا إلى قبو مظلم نتن بعيد .

فاذا بهما يسمعان همساً ووشوشات بعيدة .

ووقفا .

وأرهفا آذانهما يسترقان الهمسات .

إلا انهما لم يتمكنا من سماع كلمة واحدة بوضوح مما يدل على ان مصدر الصوت بعيد جداً .

والتفت بهاء الى عادل البسام يقول :

– يجب ان نتقــــدم كي نتمكن من استراق الحديث . لن نسمع كلمة واحدة ونحن في هذا القبو .

قال عادل :

– ولكن نحن في هذا القبو المقفــل الأبواب أشبه بسجينين ليس ثمة مدخل او مخرج لهذا القبو إلا الباب الذي دخلنا منه . أتريد أن نعود ادراجنا ؟

قال بهاء :

– يجب ان يكون لهذا المكان منفذ آخر غير هــذا الباب ،

تعال نبحث عنه .

قال عادل :

ـ يجوز ان يكون هناك باب آخر ، ولكن هل نستطيع العثور عليه ؟

قال بهاء :

ـ يجب ان نفتش .

وبدأ بهاء يفتش في الجدران عن الباب الثاني .

في حين كان عادل يساعده وهو يحمل النور ليضيء القبو ويطرد الظلام الدامس .

وطال تفتيشهما .

ولكن دون جدوى .

ورأى رجل الأمن أن يستريحا قليلاً لأن التعب كان قد أنهكهما .

فقال لرفيقه الشاعر :

ـ تعال نسترح قليلاً قبل استئناف البحث يا بهاء ، فالتعب قد أنهك قوانا .

قال بهاء :

ـ أفي هذا المكان تريد الاستراحة يا عادل ؟

قال عادل :

ـ أجل في هذا المكان ، اتخاف ؟

فابتسم بهاء :

أنت تعلم ان الخوف لم يدخل الى قلبي ، فانا أهزأ بالخوف

لأن الخوف وهم من أوهام الحياة الكثيرة ، وهم نخاف يا عادل. الانسان مسلط على كل مخلوقات الارض . عندما خلق الله الانسان أطلق يده على هذه الأرض في كل شيء ، حتى في الخير وفي الشر ، إلا ان الانسان نفسه أبى ان يمارس سلطته التي منحه اياها الله لأن الخوف كبّل يديه ، وأعمى عينيه ، وختّم على عقله الصغير ، انني اؤكد لك يا أخي ان اليوم الذي يتحرر به الانسان من قيود الخوف سيكون يوم انتصار الخير على الشر ، وربما كان ذلك اليوم نهاية الانسان على هذه الارض .

قال عادل : دعك من هذه الفلسفة الآن ، وتعال نستريح قليلاً كي نتمكن من مواصلة العمل والبحث عن باب نخرج منه إلى مصدر هذه الهمسات والوشوشات .

وجلس عادل على الأرض واتكأ بظهره على الحائط .

وإذا بالحائط يزاح وراء ظهره فيرتمش عادل ويهب واقفاً على اضطراب .

وبدأ النور يتسرب الى القبو .

واتضح ان ذلك الحائط لم يكن سوى باب سرّي آخر لذلك القبو وهو الباب الذي كانا يبحثان عنه .

وبغت الاثنان ، عادل وبهاء ، وقد فتح الباب فجأة امامهما، وأسرعا بالدخول منه فاذا بهما في قبو آخر .

وإذا بالهمسات تقترب منهما ، بعد ان اقتربا هما منها !

وتأكدا من انهما يسيران نحو مصدر الصوت

وكان ذلك الصوت أو بالأحرى تلك الاصوات تبعث الرعشة

في القلوب والرهبة في النفوس .

وكان الاثنان يسيران نحو مصدر الاصوات بخطوات متئدة، وعادل يضع يده على مسدسه استعداداً لاطلاق الرصاص عند أول خطر .

وكان كلما اقترب عادل وبهاء من مصدر الهمسات ازدادت الاصوات وضوحاً .

وسارا على مهل ، وهما يتحاشيان ارتفاع وقع خطواتهما .

وبعد ان سارا مسافة قصيرة في ذلك القبو ، بدأت الأصوات تنجلي فسمعا صوتاً خشناً يقول : هنا ستموت ، هنا ستموت ...

وسمعا صوتاً آخر يردد : رحماك ، رحماك .

وعرفا الصوت .

انه صوت بديع .

بديع مسجون في ذلك القبو .

ولكن من هو الذي يهدده بالموت ؟

من المؤكد انه المارد الاسود الجبار .

وعاد الصوت الى التمتمة : الذين ماتوا قبلك هنا كثيرون. أتريد ان ترى ، تعال ، هذه الجمجمة جمجمة شاب كان مثلك يحشر انفه في اعمالنا فقضينا عليه ، وهذا الهيكل البشري هو هيكل رجل قوي أراد ان يكشف أسرارنا فقضينا على روحه، أتريد ان ترى ايضاً .

ورد بديع :

ـ لا اريد ان أرى شيئاً،لقد اكتفيت من خيرك، مدّ الله

بعمرك وقدرني لأرد لك جميلك ، ولكن أرجـــوك ان تطلق سراحي .

وإذا بالمارد يطلق قهقهات مرعبة ارتجت لها ارجـــاء تلك الدهاليز والأقبية المظلمة الموحشة المخيفة .

وقال : لم يدخل أحد الى هذه الأقبية وخرج منها سالماً . كل من يدخل إلى هنا يجب ان يموت هنـــا ، وأنت لست بأفضل من الذين ماتوا قبلك ومن الذين سيموتون بعدك .

قال بديـع وهو يجهش بالبكاء :

ــ رحماكم رحماكم أنا شاب لم أرتكب جرماً ولا اقترفت ذنباً لماذا تريدون قتلي ؟

قال المارد بصوته المخيف :

ــ يكفي انك دخلت الى هذا القصر ، هـــذه اكبر جريمة يرتكبها إنسان بحقنا .

قال بديـــع : ولكن من انتم ؟

قال : نحن ملوك الجن ، نحن الارواح المجنحة ، نحن الذين نقتل كل من تسول له نفسه الاقتراب من هذا القصر .

قال بديـــع : إذا كان لا بد من الموت فأرجوك ايهـــا المارد العزيز أن تترك لي فرصة وداع صديقي بهاء ، اريد ان اودعـه قبل ان أموت .

قال المارد : لا تخف بهاء سيموت مثلك ، وسيلحق بك الى العالم الثاني فتلتقيان هناك ، لا مجال للوداع هنا ، ولماذا الوداع ما دام اللقاء بينكما في العالم الثاني قريباً جداً ؟

قال بديـــع : ولكن بهاء شاب قوي ، وهنـــاك رجل الأمن

ايضاً يحرسه فلن تستطيع التغلب عليها .

فقهقه المارد : نحن معشر الارواح لا نخاف رجال الأمن ولا نرهب مسدساتهم ولا تطالنا قوانينهم . البشر كلهم لدينا سواء . من يؤذنا نفتك به ، ومن يبتعد عنا لا نمد اليه يداً .

قال بديع : أرجوك ان تطلق سراحي الآن وأنا أعدك بأنني سأرحل فوراً عن هذا القصر .

قال المارد : لقد فات الأوان الآن ، كان عليك ان تخرج من هذا القصر قبل أن تصل إلى هذا القبو ، أما الآن وقد وصلت الى هنا فلن تخرج ابداً . هنا ستموت هنا ستموت .

وعاد بديع الى البكاء والى الاسترحام وإلى الاستعطاف والرجاء : رحماك رحماك لا تقتلني رحماك .

إلا ان المارد مضى في قهقهاته وفي تهكمه .

وقال : لقد انقذت أنت صديقك بهاء ورجل الأمن من ذلك القبو الذي سجنتهما فيه ، فأين هما اليوم لا ينقذانك ؟ . استعد للموت استعد للموت .

قال بديع وهو يبكي : اني استحلفك بحياة اخوانك الجن وعيون أهلك وانسبائك الارواح المحترمة أن تعفو عني ولك مني ما تشاء . أرجوك أرجوك أرجوك .

إلا ان المارد لم يجب بل سكت برهة ليعود إلى الكلام فيقول : لك أن تختار الطريق الذي ستسير فيه إلى الموت . هذا نبل مني . قل لي ، أتريد ان تموت جوعاً أم ذبحاً .

قال بديع : كل هذه الطرق ترفع الرأس . الذي تراه موافقاً

يا حضرة المارد . أنا شخصياً أفضل ان لا أموت ابداً ، أما إذا كنت حضرتك تصر على ان تميتني فاختر لي بنفسك الميتة المريحة

وصمت المارد . لم يعد بهاء وعادل يسمعان إلا عويل بديع ونحيبه وبكاءه .

وابتعد عادل عن المكان الواقفين فيه والقريب من القبو حيث كان بديع والمارد .

وأشار إلى بهاء ليقترب منه .

وعندما اصبحا بعيدين عن ذلك المكان قال عادل : انني اؤكد ان هذا المارد ليس إلا مجرماً كبيراً وهو بطل جريمة اختفاء عمك وا ختفاء زميلي رجل الامن .

قال بهاء : المهم الآن هو إنقاذ بديع من هذا اللص.

قال عادل : نحن الان في قبو قريب من القبو الموجود فيه بديع والمارد إلا ان هناك حائطاً يفصل بين القبوين ومن المؤكد ان هناك باباً بين هذا القبو وذاك وعلينا ان نعثر على هذا الباب.

قال بهاء : ولكن علينا ان نسرع قبل أن يقضي المارد على بديع . انني أخشى ان نصل اليه متأخرين .

قال عادل : إذن هيا بنا لنبحث عن ذلك الباب . أسرع أسرع ، ولكن إياك ان تحدث أي حركة تنبه المارد الينا فيفتضح أمرنا وعندئذ لا يعلم إلا الله ماذا يكون مصيرنا .

وبدأ الاثنان يبحثان عن الباب السري المؤدي إلى القبو المقيم فيه بديع .

وطال بحثهما دون جدوى .

وفيما هما يبحثان عاد صوت المارد يتصاعد من داخل القبو ليقول مخاطباً بديع : لقد اعددت لك ميتة مشرفة ترفع الرأس. ستموت بالرصاص . ما رأيك في رصاصة تخترق رأسك وتستقر في نخاعك فتخمد أنفاسك فوراً ؟

فولول بديع : رحماك رحماك أعفِ عني ولك مني ما تروم ، لا تلطخ يدك بالدم .

قال المارد ضاحكاً :انني اؤكد لك ان يديّ ليستا نظيفتين فهما قد خضبتا بالدم منذ أمد بعيد . ودمك الطاهر لن يزيد في تلويثهما .

وكان بهاء وعادل يسمعان حديث المارد وقلبهما يخفق، لا سيما عندما سمعاه يقول لبديع : « ستموت بالرصاص » ، فقد تأكدا ان المارد يحمل مسدساً وان الوقت سيمر قبل ان يتمكنا من إنقاذ الشاب .

وكان قد يخيل اليهما ان المارد سيترك بديعاً في مكانه يموت جوعاً فتكون لهما فرصة انقاذه..

وإذا بصوت المارد يصرخ :

استعد للموت استعد للموت .

وإذا برجل الامن يعمد الى الحيـــلة لانقاذ بديع فيصرخ : الويل كل الويل لك أرفع يديك .

وسمع المارد الصوت فارتد مذعوراً ، وقـد كان على اعتقاد راسخ ان ليس هناك احد في تلك الاقبية .

وارتد عن بديع .

وإذا بباب القبو القائم فيه عادل وبهاء يفتح .
لقد كان ثمة باب سري .
وإذا بالمارد الاسود ينتصب في باب القبو شاهراً مسدسه صارخاًبالمفتش وبهاء وقد شاهدهما : هنا ستموتان ايها الشقيان .
ودوى الرصاص .
وكان مطلق الرصاص عادل البسام .
فهو قد فاجأ المارد في اطلاق الرصاص من مسدسه .
وكان قد استعد للمعركة ، واختبأ مع بهاء وراءبراميل عدة وأكياس وأخشاب ، وراح يمطر المارد بوابل من الرصاص .
ولم يطلق المارد ولا رصاصة واحدة .
وخيل لبهاء ان رصاص عادل أصاب المارد وقتله .
إلا انه اتضح ان المارد لم يصب بالرصاص وانه يكمن هو ايضاً خلف الحائط بانتظار ان يفرغ مسدس عادل من الرصاص .
وتنبه عادل إلى الخدعة ، فتظاهر بأن مسدسه فرغ. وانقطع عن إطلاق الرصاص .
وإذا بالمارد يبادر إلى الهجوم باطـلاق الرصاص بوحشية على عادل وبهاء .
وكان بديـع مستلقياً على الأرض وهـــو يرتجف من الخوف ويصرخ : ايها المفتش عادل اصرعه لا تخف ، أصرعـه، أطلق الرصاص ، ولكن إياك ان تصيبني برصاصة . أنا هنا ، انتبه .
وكان في صراخه ، وبكائه ، واستنجـــاده ، وتحذيره يثير

الضحك والأسى في وقت واحد .

وأخذ المارد يطلق الرصـــاص بصورة تثبت انه بارع في إطلاقه .

وكانت رصاصـات مسدسه تتساقط حولها مخترقة الجدران والاكياس والبراميل .

إلا ان الرصاص لم يصب أحداً منهما .

وانقطع المارد عن إطـلاق الرصاص ، وكان عادل ما زال يحتفظ بعدد من الرصاص في جيبه فحشا مسدسه وراح يرقب من المارد ان يطلق رصاصة كي يعلم مقره .

إلا ان المارد لم يطلق ولا رصاصة واحدة .

وأدرك عادل ان ما ينتظره هو ينتظره المارد ايضاً .

فاعتصم بالصمت وبالهدوء .

وراح عادل ينتقل من مكانه فيخدع المارد ويبـــادر باطلاق الرصاص من مكان آخر .

ووضع فمه على اذن بهاء وهمس : ازحف ورائي الى الناحية الشمالية . تعال ..

وزحف الاثنان زحفاً إلى الناحية الشمالية من القبو .

وكان الظلام الغامر تلك الأمكنة المخيفـــة يساعدهما على الاختفاء ..

ودخلا إلى زاوية القبو الشمالية .

فكمنا وراء كيس كبير مليء بالحطب والأخشاب .

وأقاما ينتظران من المارد ان يطلق الرصاص ، وقد عزم عادل على ان يقيم على الانتظار مهما طال الانتظار ان يطلق الرصاص بل هو سينتظر من المارد ان يكون هو البادىء .

وما ان يطلق المارد الرصاصة حتى يكون عادل قد صوّب المسدس اليه وأطلق عليه رصاصة فيرديه فوراً .

وخيم الصمت الرهيب في تلك الأقبية .

حتى بديع نفسه انقطع عن الصراخ والنحيب .

وطال الصمت .

وأخيراً ، وبعد صمت طويل دوى الرصاص في القبو .

وكان مطلق الرصاص هذه المرة المارد .

واتضح ان الحيلة التي عمد اليها عادل هي نفس الحيلة التي عمد اليها المارد .

فهو كذلك قد انتقل من مكانه إلى زاوية من ذلك القبو .

إلا ان مبادرته إلى إطلاق الرصاص أولاً كانت الجانية عليه .

فما ان لمع وميض الرصاصة المنطلقة من مسدسه حتى كان عادل قد صوّب المسدس الى مصـــدر الوميض وأطلق ثلاث رصاصات دفعة واحدة .

وإذا بالمارد يسرع بالهرب .

وكان وقع خطواته يمزق آذان الليل البهيم ، وهـو يركض تاركاً وراءه صدى خطواته في تلك الأمكنة .

ولحق به عادل .

وراح يطلق عليه الرصاص في الظلام مسترشداً بصوت وقع خطواته .

ولم يبادل المارد عادلاً إطلاق الرصاص ، مما يشير الى ان مسدسه قد فرغ من الرصاص ، وانه بات راغباً في الهرب اتقاء للرصاص الذي كان ينهمر عليه

وحاول بهاء ان يلحق بالمارد .

إلا ان عادلا منعه وقال له : لا يا بهاء ، لا تلحق به ، لعله يريد أن ينصب لنا فخاً ، أنسيت ماذا فعل بنا عندما لحقناه في المرة الاولى ، وتمكن من إقفال باب القبو علينا . قف هنا لا تتحرك .

ووقف بهاء قرب عادل ينتظران ابتعاد المارد .

وعندما تلاشى وقع الخطوات ، أنار عادل مصباحه الكهربائي وراح يفتش عن بديع .

وقد لاح له بديع مستلقياً على الأرض يرتجف من الخوف وهو على آخر رمق .

وساعداه على النهوض .

ووقف بديع ، وهو لا يزال يرتجف من الخوف .

وقاداه إلى الدهليز .

وهناك في الدهليز شاهد عادل على ضوء المصباح الكهربائي الضئيل آثار دماء على الأرض .

فتأكد من ان رصاصه أصاب المارد ، وان تلك الدماء هي دماء المارد الاسود الطويل .

وارتاح عادل وقد رأى الدماء .

وقال لبهاء : ان هذه الدماء ستكون لنا الدليل إلى المارد ، سنتبعها إلى أن تصل بنا إلى هذا المجرم الخطير .

هذا ما قاله عادل .

أما بديع فقد عاوده الخوف ، وقد شاهد آثار الدماء .

وقال للمفتش : الآن وقد اصيب المارد برصاصك فهو سيثأر منا ثأراً رهيباً، لن يعفو عن أحد منا ، يا ويلنا ويا ويلنا.

وضحك عادل .

وقال لبديع :

– هل تأكدت الآن من ان هذا المارد ليس روحاً شريرة بعد ان شاهدت الدماء

أجاب بديع

– أنا لا أصدق ، انني على يقين من ان الارواح الشريرة تحتل هذا القصر ، يجب ان نرحل ، يجب ان نرحل عن هذه الربوع .

وعاد عادل وبهاء الى المسير ببديع متتبعين آثار الدماء ، ومسترشدين بالمصباح الكهربائي الشحيح النور .

وساروا في دهليز طويل مظلم .

ومن الدهليز دخلوا الى قبو فسيح الأرجاء يتسرب اليه نور النهار من كوة عالية جداً .

وكان ثمة للقبو باب كبـير مروا منه الى دهليز آخر طويل مظلم رطب كئيب .

وساروا مسافة طويـلة في ذلك الدهليز .

وكانت رائحـة العفونة والنتانة في جنباته تزيد في كآبته ووحشته ورهبته .

وظلوا يمشون زهاء خمس دقائق ، الى ان انتهوا اخيراً الى قاعة فسيحة فيها مقعد وقنديل زيتي وابريق ماء وطاولة .

ولاحت التفاتة من رجل الأمن الى زاوية القاعـة فشاهد ثوباً ممزقاً .

وتقدم من الثوب يرفعه بيده ويتميزه ليقول بدهشة : هذا الثوب هو ثوب عمك يا بهاء أليس كذلك ؟

وتميز بهاء الثوب ليقول :

ـ أجل ، انه ثوب عمي ، ان عمي البخيل كان يرتدي هذا الثوب منذ عشرات السنين ، ومن المؤكد انه كان يرتديه عندما اختفى .

وكانت آثار دماء المارد كثيرة في تلك القاعة ، مما يدل على ان المارد توقف في تلك القاعة لغرض ما .

وعاد الجميع يتتبعون الدمـاء الى دهليز آخر طويل .

وقال عادل ، وهو يمشي مع بهاء وبديع :

- إن اصابة المارد بالغة ، وأنا استغرب كيف استطاع ان يسير طيلة هذه المسافة والدماء تسيل منه .

وعاد بديع الى الارتجاف والخوف .

وقال : هل صدقتما الآن ان المارد روحاً شريرة . لو لم تكن له قوة الارواح لما استطاع ان يسير المسافة الطويلة دون أن يقع في إغماء شديد .

وضحك الاثنان ، عادل وبهاء ، وعادا مع بديع الى المسير.

وفجأة بعد مسير شاق وجدوا أنفسهم في غابة كثيفة الأغصان وارفة الظلال .

لقد كان ذلك الدهليز ينتهي إلى تلك الغابة الواسعة الارجاء وتضح ان الغابة تبعد مسافة شاسعة عن قصر وادي الجماجم .

لقد كانت أقبية القصر تنفذ إلى تلك الغابة البعيدة.

وهناك في تلك الغابة اختفت آثار دماء المارد الاسود المخيف .

***

وكانت الساعة قد بدأت تشير إلى العاشرة ليلا .

والراهبات ما زلن في جلستهن قرب الراهبة رفقة حول الموقد المتقد النار .

والعاصفة ما تزال تهب مجنونة هوجاء في جبال الأرز

مرسلة عويلها وأنينها وصفيرها في تلك الوهاد والجبال والوديان.

والجبال تندف قطنها الناصع البياض لتنسج منه ثوباً رائعاً فضفاضاً للطبيعة الساكنة الخرساء .

وقالت رفقة :

ــ الآن ، وقد دقت الساعة دقاتها العشر فلنذهب إلى النوم. نحن لم نتعود السهر إلى مثل هذا الوقت يا شقيقاتي .

قلن :

ــ وبهاء ؟ وبديع ؟ وعادل ؟ وشيخ قصر الجماجم ؟ والمارد . ماذا حل بهم ؟

قالت رفقة والدموع تغمر عينيها :

ــ الى الليلة القادمة . إلى الليلة القادمة !

ونهضت الراهبات . وتوجهن إلى أسرتهن ، وهن يتمتمن الآيات الروحية والصلوات المقدسة الخاشعة .

الفصل الثالث

وفي الليلة التالية ، بعد الصلاة ، جلست الراهبات حـــول الموقد المتقد النـــار يصطلين ، ويقهرن البرد القـــارس باللهيب المضطرب . وقلن لرفيقتهن :

ـ وبعدئذ ماذا جرى يا أختنا رفقة ؟

وعادت الراهبة الحزين إلى إكمال القصة الدامية فقالت :

« عاد بهاء العواد والمفتش عادل البسام إلى القصر .

وأقاما مع بديـع على انتظار عودة المارد .

إلا ان المارد لم يعد .

فقد ظل عادل ينتظر عودة المـــارد ثلاثة أيام وليالٍ إلا ان المارد لم يبن له أثر .

وقال بهاء :

ـ ماذا ياعادل . هل يعود المارد ؟

وأجاب عادل :

ـ لا أعلم . انني أشك بعودته المارد الاسود لن يعـــود ،

وقد أدرك أننا له بالمرصاد .

وقال بديع :

– يجب ان نعود إلى بيروت .. يجب ان نعود .. أتريدان ان تفسحا المجال أمام الأرواح الشريرة للفتك بنا ؟

فضحكا منه ..

وعزما على ألاّ يغادرا القصر إلا وقـــد اكتشفا سر المارد الأسود ، وسر اختفاء شيخ قصر الجماجم .

وبعد أيام ثلاثة جـــاء رسول إلى القصر يحمل بطاقة دعوة للمفتش عادل البسام .

والبطاقة تلك كانت تحمل الكلمات التالية :

« ان السيدة رفقة منصور تدعو السيد عادل البسام لحضور الحفلة الراقصة التي تقيمها في قصرها في وادي الجماجم في الساعة التاسعة من ليل ١٩ آذار عام ١٩٢٠ » .

وسأل عادل :

– من هي السيدة رفقة منصور ؟

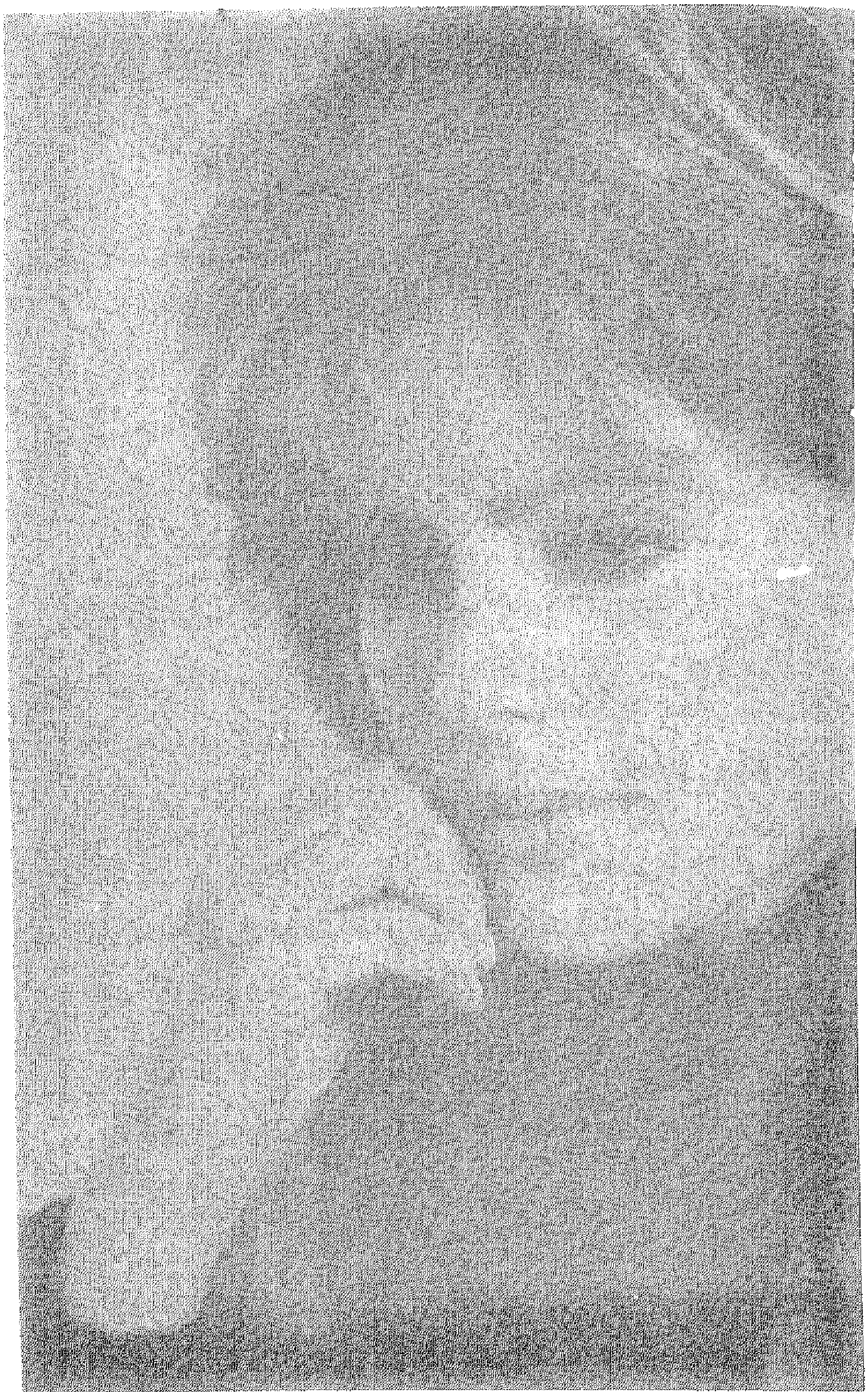
قال الرسول :

– انها سيدة هذا القصر الرابض هناك في سفح الجبل وسط غابة الصنوبر المطلة على الوادي .. انظر ، ها هو القصر .

ولم يكن ثمة في وادي الجماجم سوى قصرين .

قصر عم بهاء ، وقصر رفقة منصور .

أما ما بقي من المنازل فهي أكواخ صغيرة يسكنهـــا الفلاحون .



وعاد المفتش عادل البسام يسأل الرسول :

– ومن سيحضر هذه الحفلة ؟ وما هي المناسبة التي من أجلها تقيم السيدة رفقة منصور حفلتها هذه ؟

قال الرسول :

– ان السيدة رفقة تقيم هذه الحفلة كل عام في مثل هذه الايام احتفاء بعيد مولدها . أما المدعوون فهم بعض الوجهاء والشخصيات الكبيرة .

قال عادل :

– سأحضر هذه الحفلة ..

وعاد الرسول يخبر سيدته رفقة ان عادلاً سيحضر حفلتها . فقاطعت الراهبة شمونة رفيقتها الراهبة رفقة لتقول : ولكن من هي السيدة رفقة منصور ؟

قالت رفقة والدمعة تغمر عينيها :

« انها الراهبة رفقة .. أنا هي .. لقد كنت سيدة ارتع في غنى فضفاض وجـاه عريض .. كنت املك ذلك القصر في وادي الجماجم وكان عندي في القصر الخدم والحرس والجنود.

وتابعت الراهبة سرد قصتها فقالت :

« وفي الموعد المضروب . وفي الساعة التاسعة من ليل العاشر من آذار عام ١٩٢٠ احتشد في قصري جمهور غفير من الوجهاء والحكام ورجال الصحافة والأدب والأعمال .

إلا انني لم أكن أفكر في تلك الليلة إلا بالمفتش عادل البسام.

فأنا أريد ان يحضر عادل حفلتي . اريد ان أتعرف الى هذا الرجل .

ورحت أرقب حضوره بفارغ صبر .

ودقت الساعة التاسعة ، وعادل لم يحضر .

ودقت الساعة التاسعة والنصف .

ودقت الساعة العاشرة ولم يبن له أثر .

فخيل اليّ انه لن يحضر ..

ولكن عادلاً دخل فجأة الى قاعة الاستقبال .

وأدركت انه هو .

فوقف في الباب يجول بنظره في الحضور .

كان كالغريب بين المدعوين .

فتقدمت منه أصافحه .. واتمتم :

ـ المفتش عادل البسام ؟ أليس كذلك ؟

فابتسم وقال :

ـ نعم يا سيدتي رفقة .

وقدته إلى الداخل ..

وجلست قربه في زاوية من زوايا الغرفة .

وكنت أرتدي فستاناً أبيض اللون غالي الثمن .

فراح عادل يثني على ذوقي ..

وتحدثنا في كل شيء .

وسألته عن سبب حضوره إلى وادي الجماجم وإقامتـه في قصر الشيخ العواد .

فقال لي إنه موفد للتحقيق في قضية إختفاء الشيخ العواد .

وقلت له :

– يقولون ان الارواح الشريرة هـي التي اختطفت الشيخ وهربت به .



إلا ان عادلاً ضحك مما قلت وقال :

– أيتها السيدة رفقة ! هل تؤمنين بهذه الشائعات المضحكة ؟

– إنني اؤمن بكل ما يقال .

– لا ، قصة الارواح اخترعها ذلك الذي اختطف الشيخ .

– ومن هو ؟

– هناك عصابة تدعى عصابة الموت وهذه العصابة هي التي فتكت بشيخ قصر الجماجم .

وتظاهرت بالخوف وسألته :

– عصابة الموت !

– أجل ، ويقال ان هذه العصابة الفاتكة قضت على شيخ

قصر الجماجم .

– ومن قال لك ذلك

– لقد تأكدت ذلك بنفسي .

– وقصة الأرواح الشريرة ؟

– لقد روجها أعضاء هذه العصابة للتضليل .

وهنااقترب الخادم الأعرج الأعور خالد مقدمـــاً لنا الخمر ، فتناولت كأساً قدمتهـا لعادل ، ثم أخـــذت أنا كأساً ورحت أرشفها على مهل .

وعدت أسأل المفتش

– هل ستطول إقامتك في ربوعنـــا

– لن اعود الى العاصمة ، إلا وقد اعتقلت جميـع أفراد عصابة الموت .

– جميعهم

أجـل جميعهم .

وسألته :

– وأين ابن شقيق شيخ قصر الجماجم : الشاعر المجنون ، ألا يزال يقيم معك في القصر ؟

– ان بهاء العواد ابن شقيق الشيـخ ليس مجنوناً ، إنه شاعر كبير ، وهو شجاع إلى أبعد حدود الشجاعة ، أنا ما عرفت في حياتي شجاعة مثل شجاعته ،

وهنا كانت الموسيقى قد بدأت تعزف .

وكان المدعوون قد قاموا الى الرقص .

فأمسكت بيد المفتش الشاب وقمت أراقصه .

وفيما كنا نرقص معاً همست في أذنه :

– عادل ! .

– ماذا ؟

– أتعلم لماذا دعوتك إلى هذه الحفلة ؟

– لا !

قلت همساً : لانني احبك ..

فابتسم على دهشة وحيرة وقال :

– تحبينني ؟ وأنتِ تكادين لا تعرفيني إلا منذ دقائق !

– إنك على خطأ ، انا أعرفك منذ أمد بعيد .. لقد رأيتك في بيروت منذ ثلاث سنوات ، ومنذ ثلاث سنوات وأنا اشتاق التعرف اليك .

ورحت أهمس في أذنه كلمات الحب والغرام .

وخيل اليّ ان المفتش آمن بما أقول ..

وسألته وقد أشرف الرقص على الانتهاء :

– هل تعود الى هنا بعد ان ينصرف الجميع ؟

– ولماذا لا أبقى هنا منذ الآن ؟

- لا ، لا يجوز ان تلفت اليك الانظار . إذهب معهم وعد إليّ عند الفجر . سأكون بانتظارك في غرفتي . تدخل من الباب الخلفي للقصر وتجد الخادم بانتظارك فيقودك الى غرفتي ..

قال : ولكن ..

فقاطعته : هذه فرصة سانحة لنا نحن الاثنين . لن تسنح لنا الفرص مرة ثانية . انني بانتظارك يا حبيبي .

وعدنا الى الشراب .

وكانت الحفلة صاخبة ..

وطلب القوم مني أن أغني فغنيت .

لقد انشدت اناشيد عدة وغنيت بعض الاغاني المبتذلة ..

وراح الجميع يصفقون لي .

يصفقون لجمالي الباهر ولصوتي الشجي .

ولم ينصرف المدعوون إلا والساعة قد أشرفت على الثانية بعد منتصف الليل .

وكان عادل البسام آخر من خرج من القصر .

وشد يدي ، وهو يصافحني .

وهمست في أذنه وهو يقبل يدي :

- اني بانتظارك عند الفجر .

فابتسم ..

وكانت ابتسامته تأكيداً لي بأنه سيعود .

وما ان ذهب الجميع حتى عاد الخادم خالد إلى القاعة .

وضحك .. وضحكت .

وتوجه خالد إلى الابواب يوصدها .

ثم ينزع عن وجهه التنكر .

وينتصب كالغصن الرطيب ....

ولم يكن خالد أعرج ولا أعور .

لقد كان شاباً طويل القامة عريض المنكبين قوي البنية .

وأطبق عليّ يضمني إلى صدره ويقهقه .

وقهقهت معه .

خالد الخادم كان عشيقي .. لقد كان رئيس عصابة الموت .

وانا ، انا رفقة الجالسة الان امامكن يا رفيقاتي كنت عشيقة رئيس عصابة الموت وكنت شريكته في جرائمه .

كانت عصابتنا تضم عشرة لصوص .

عشرة لصوص فقط استطاعوا أن يرتكبوا عشرات الجرائم المخيفة المرعبة ويبعثوا الذعر في قلوب أبناء تلك الربوع .

وجلسنا أنا وخالد نتحدث .

وأخبرت خالد بأنني دعوت مفتش الأمن لزيارتي مع مطلع الفجر .

فضحك وقال:

– إذن ستتخلص منه الليلة ؟

ـ أجل ، الليلة سنتخلص من عادل البسام بطعنة خنجر من خنجرك المصقول يا حبيبي خالد .

قال خالد :

ـ لا يا رفقة . لن اطعنـــه أنا . انني لأخشى ان يشتبه بي وقد نزعت عني تنكري وعدت إلى حقيقتي. أنسيتِ ان عادلاً رآني عندما كنت أقوم بتمثيل دور المارد الجبار في قبـو قصر الجماجم ، وانه أطلق عليّ الرصاص وأصابني في يدي ؟ ها يدي ما زال الدم ينزف منها حتى الآن .

قلت :

ـ وما يضيرك إن هو عرفك أم لا ، ما دام انه سيموت ؟ فليحمل معه سر التشرف بمعرفتك إلى القبر .

قال :

ـ الحقيقة انني أخشى ان يفلت من أيدينـا . عادل البسام ليس باللقمة السائغة التي يسهل ازدرادها .

فقهقهت ، وقلت :

ـ أيكون عادل البسام أفضل من رفيقه مفتش الأمن الذي اعتقلناه وسجناه في القبو ؟ . أم يكون أفضـل من شيخ قصـر الجماجم الذي ما زال سجيناً في اقبيتنا حتى الان ؟ . أم تراه أشد قوة وبأساً من بهاء العواد الشاعر المجنون الذي حكمنا عليه بالموت ؟



قال :

– لقد كان خالد وما زال يرسم الخطــط ، وكنت أنت وأفراد العصابة تنفذونها . وسيظل خالد الرئيس وستظلون أنتم الجنود المنفذين أنا سأرسم خطة الفتك بالمفتش عادل وما عليكم إلا تنفيذها . إسمعي يا رفقة . عندمـــا يحضر عادل تتظاهرين بأنك متيمة في هواه ، وتصبين له الخمر وتشربين وإياه . وعندما يتعتعه السكر تسحبين خنجرك المصقول وتغمدينــه في ظهره ، أو في صدره . اني اترك لك حرية الاختيار .

قلت :

– وإذا فشلت ، إذا لم أتمكن من الفتك به ؟

– الثقة بالنفس تفعل العجائب . ثقي بأنك ستوفقـــين في الطعنة النجلاء ، ستوفقين .

قلت :

– إنني افاعلة بما تأمر يا خالد أنا لم أخالف لك أمراً حتى اليوم ، ولن أخالف لك أي أمر

وكانت الساعة قد بدأت تشير إلى الثالثة من الصباح ، فقلت لخالد :

– إذهب الآن وقف أمـــام باب القصر الخلفي سيحضر عادل وتقوده أنت بنفسك إلى غرفتي .

وقهقه خالد ، وقال :

– هل رأيت عشيقاً يقود لعشيقته « حبيبها » بنفسه ؟
وقهقهت معه ، وقلت :
– إذهب واحضره إلى هنا ، وادع لي بالتوفيق والنجاح .
وطوقني خالد بيديه ، وقبلني وذهب . »

*

وأغمضت الراهبة رفقة عينيها كأنها تستعيد الذكريات الآفلة ، وتمتمت

– « آه ، انني ما زلت اذكر هذه المأساة . انني اعيش الان بالذكريات المؤلمة الدامية الدامعة المخيفة ، وها انا اعي كل فصل من فصولها ، وكل خطوة من خطواتها ، وكل كلمة من كلماتها ، وكل حرف من حروفها .. وابكي ، انني أبكي خطاياي الكثيرة وآثامي الثقيلة ، علّ دموعي تذيبها فتخفف الوطء عني » .

قالت الراهبة شمونة
– وبعدئذ ماذا حدث يا رفقة
قالت رفقة وهي تمسح دموعها
وتنكر خالد مجدداً ، ووقف أمام الباب الخلفي ينتظر .
وطال انتظاره ، حتى مطلع الفجر البعيد .
وخيل اليه ان عادلاً لن يحضر .
إلا ان عادلاً حضر ، والفجر قد بدأ يتسلل إلى ثوب الظلام ،

فيوشحه بخيوطه البيضاء المخضبة بالدم .

وشاهد عادل خالداً يقف أمام الباب فأيقن انه في انتظاره.

وتقدم مفتش الأمن من خالد فألقى خالد عليه التحية :

— صباح الخير يا سيدي .

قال عادل :

— صباح الخير .

قال خالد :

— السيدة رفقة بانتظارك ، تفضل .

وسار خالد أمام عادل بقدمين ثابتتين.

أما المفتش فقد سار على مهل ،

وبدا منه انه على حذر .

. لقد كانت يده اليمنى في جيبه .

وخالد كان يعلم ان يده تقبض على المسدس .

وان مفتش الأمن متأهب لاطلاق الرصاص عند أي حركة يشتبه من خلالها بمكيدة ..

وتجاهل خالد كل شيء .

وتظاهر بالبله .

وسار أمام رجل الامن في الممر الى المطبخ .

ومن المطبخ خرج به الى البهو .

ثم الى غرفة الطعام .

ثم الى غرفة الاستقبال .

ثم أصعده الى الطابق الثاني من القصر ، الى غرفتي .

ووقف خالد أمام باب غرفتي يطرقها .

وتمتمت أنا من الداخل :

- من ؟

وأجاب خالد :

- انا ابنها السيدة رفقة .

قلت :

- ادخل .

ووثب خالد يفتح الباب ويتراجع إلى الوراء .

وشاهدت عادلاً يقف بالباب .

فأسرعت الى ملاقاته .

ومددت له يدي مصافحة .

وقبّلها .

والتفت الى خالد أقول له :

- أسرع يا خالد بإحضار النبيذ المعتق الى هنا ، اسرع .

واسرع خالد بالخروج ، وهو يتعمد إخفاء وجهه .

كان يقف في الظلام .

اما عادل فقد دخل الى غرفتي على ارتياح وهدوء وابتسام .

واوصدت الباب .

وجلست على مقعد وثير .

وجلس عادل بعيداً عني .

إلا انني نظرت اليه نظرة إغراء ، وقلت له :

ــ اتريد الابتعاد عني يا عادل ؟

ــ اريد الابتعاد عن كل ما يخيف ، اذا اقتربت منك أخاف .

ــ وممَ تخاف ؟

ــ اخاف ان احترق بالنار .

وقهقهت وقلت :

ــ هل لمثلك ان يخاف امرأة مثلي ؟

ــ أجل ، الجمال يخيف ايتها السيدة رفقة ، إنك لترتعين في جمال رحيب وهذا ما يخيفني .

وضحكت.

لقد كنت اعلم انني اتربع على قمة الجمال .

وفي هذه الاثناء حضر خالد يحمل الخمر الفاخر المعتق ، وبعض الحلويات والأثمار المجففة .

ووضع خالد الاثمار والخمر أمامنا وخرج سريعاً وأغلق الباب وراءه .

وامتدت يدي الى زجاجة الخمر تفتحها وتملأ كأسين ، كأساً لي وكأساً لعادل البسام .

وجلسنا نحسو الخمر .

وكنت أتظاهر بالشرب .

أما عادل فراح يشرب الخمر بنهم .

وطالت جلستنا .

وطال سكب الخمر ، وعادل البسام لم يسكر ، ولم يغب عن رشده .

وبزغ الفجر .

وبدأ الصباح يبشر بالوثوب .

وخفت افتضاح الأمر .

فعزمت على تنفيذ الخطة التي رسمها خالد قبل بزوغ الفجر

وتحسست الخنجر في صدري

وقبضت يدي على النصلة .

وتمتمت : عادل ! أتحبني ؟

وتمتم عادل : أحبك ؟

قلت :

ـ أجل هل شعرت نحو رفقة بعاطفة هائمة حيرى ؟

قال وهو يتعمد الخبث والمكر :

ـ انني لأحبك إذا كان لي في قلبك ذرة من هوى وغرام .

فاقتربت منه ، ويدي لا تزال قابضة على الخنجر .

وقلت :

ـ أتشك في حبي ، وقد جدت عليك بعواطفي وشعوري وقبلاتي ؟

فابتسم وقال :

ـ هذه كلها لا تعني الحب.

قلت :

ـ وماذا عليّ ان أفعل كي أبرهن لك عن حبي ؟

قال :

ـ اتعدينني بأن تقدمي لي خدمة تبرهنين بها عن حبك إياي ؟

قلت :

ـ أعدك .

قال :

ـ اريد ان اقف منك على مقر عصابة الموت .

فتراجعت الى الوراء في دهشة ووجوم .

ـ أيكون هذا المفتش اللعين قد وقف على حقيقتي ؟ أيكون أدرك ان العصابة اتخذت قصري مقراً لها ؟ !

أيكون علم من أكون ومن هو خالد الخادم ؟

وتظاهرت باللامبالاة .

وقلت :

ـ أنا ؟ أأستطيع أنا ان اعلم مقر عصابة الموت يا عادل ؟

قال :

ـ أجل انك لتستطيعين . أنا أعلم انـك تستطيعين ان ترشديني إلى مقر هذه العصابة .

فضحكت متعمدة التضليل.

وقلت : انك على خطأ يا حبيبي .

وكانت يدي لا تزال تقبض على الخنجر في صدري متأهبـة لانتزاعه وإغماده في صدر المفتش الخبيث .

وكان عادل ينظر اليَّ بدهاء في حين ان يده كانت لا تزال في جيبه .

وادركت ان يده تقبض على المسدس في الجيب .

وأيقنت ان عادلاً لن يتورع عن إطلاق الرصـاص عليَّ إذا قمت بأي بادرة تثير شكوكه وتبعث ظنونه .

فتقدمت منـه ، وقد تركت يدي الخنجر في هجعتـه في صدري تحت الثوب أقول : ما لنـا وللعصابة يا حبيبي . تعال نرتوِ من حبنا قبل ان ينبلج الصباح ويستفيق الخدم .

فاستوى عادل في جلسته على المقعد وقال : رفقة أنا اعلم ان عصابة الموت تحتل هذه الجبال والوهـاد فتقوم بتمثيـل دور الارواح الشريرة وتبعث الخوف في قلوب أبناء هذه الربوع .

ولا اخفيك ان العصابة ارسلت احد اعضائها اللصوص الى قصر الجماجم وهو طويل القامة ، يشبه إلى حد بعيد الخادم الذي يقوم على خدمتك والذي سمعتك تنادينه باسم خالد ، وقد قام

هـــذا اللص بدور الشبح محاولاً بعث الخوف في قلبي وفي قلب الشاعر بهاء العواد وصديقـه بديع ، فأخفق ، ولم يوفق إلا في إخافة بديع فقط ، امـا انا وبهاء ، فلم نأبه له ، وقد اشتبكت وإياه بالرصاص وأصبته إصابة غير خطرة ، وانا مضطر يا رفقة الى اعتقال هذا الخادم والتحقيق معه لمعرفة مدى علاقتـــه بالعصابة

قلت ، وانا اتظاهر باللامبالاة ، وبالهزء : يا لك من رجـل بسيط القلب ، هل يخيل إليك ان خالداً عضـــو في العصابة وأجرؤ على إيوائه في قصري ؟ ، انك على ضلال هذا الخـادم معاق أبله ، وهو يقوم بخدمتي منذ عشرين سنة. لقد كنت طفلة عندما جاء به والدي من إحدى القرى القريبة واستخدمـه في قصره ، وبعد موت والدي ظل هنـا يشرف على إدارة القصر . انه رجل طيب القلب ، أتريـد ان أدعوه الآن وتتحدث معـه فيثبت لك صدق قولي ؟ .

قال عادل :

– لا يا رفقة ، لا أريد ان اتحدث اليه الآن . غداً سأدعوه الى قصر وادي الجماجم وأحقق معه هناك بحضور بهاء العواد .

فتظاهرت بالغضب الشديد ، وقلت :

– هذه إهانة لي.لن أرضى بها ، انت تتهم احـــد خدمي باللصوصية .

قال :

اني أرجو ان يكون بريئاً يا رفقة فيعود الى خدمتك .

وأيقنت ان هذا الرجل العين سيكتشف أمرنا ، إن نحن لم نقض عليه وآمنت بما قاله خالد منذ برهة : « عادل البسام لا يجوز ان يخرج من القصر حياً. هنا سيموت ، هنا سيموت ».

وعدت إلى الخمر أصبه في كأس عادل بسخاء .

يجب ان يسكر .

السكر يساعدني عليه .

وعاد عادل الى الشرب .

ولم يفعل الخمر به ما أردت له

لقد كان جباراً..

كان يشرب ولا يسكر .

ورأيت ان انفذ الخطة المرسومة قبل ان يفضحنا الصباح .

فابتعدت عن عادل وقد عزمت على ان أرشقه بالخنجر من بعيد .

وأنا ماهرة في الرشق بالحراب وبالخناجر .

لم يسبق ان أخطأت رشقي مرة واحدة .

ورآني أبتعد عنه .

فابتسم وقال لي :

– لماذا تبتعدين عني يا رفقة ؟ تعالي ، تعالي اجلسي الى قربي .

وابتسمت له .

ومضيت في الابتعاد عنه .
ووقفت أمام باب الغرفة .
أما هو فقد عاد الى الخمرة يحسوها على مهل .
ورفع الكأس عن شفتيه ونظر الي ليقول : لماذا تهربين مني؟
ولم أجب .
فنهض ، ووقف مستنداً إلى مقعد عال وثير .
وفجأة سحبت الخنجر من صدري ورشقته به بسرعة فائقة ولم تخطىء رشقتي .
فقد أصبته في صدره .
وأطلق عادل صرخة داوية .
وسقط على الارض ، والدم ينزف من جرحه بغزارة .
ورفع يده إلى الخنجر محاولا انتزاعه من صدره .
فخفت .
ألم يمت ؟ .
هل يستطيع أن ينتزع الخنجر ويرشقني به؟
وابتعدت عنه بحذر .
وأمسكت بقصد محاولة اتقاء الخنجر به إن هو استطاع انتزاعه من صدره .
وإذا بيده ترتخي وتفلت الخنجر وتتلاشى في جسده كل حركة .
وأيقنت انه مات .

وتقدمت منه بخطوات متئدة ، وأنا أمسك قلبي بيدي .
ليس من السهل القضاء على إنسان .
القتل مخيف .
انه يخيف القاتل أكثر بكثير مما يخيف المقتول .
وكنت خائفة .
خائفة جداً .
كنت اتقدم من عـــادل البسام ، من جثة عادل ، والخوف يكاد يقضي عليّ .
لقد قتلت إنساناً .
أزهقت روحاً .
قضيت على شاب .
وشعرت ان ثمة مئات الايدي ترتفع الي لتزهق روحي وتخمد انفاسي .
لقد شعرت ان عـادلا ، ان روح عادل ، تشد بعنقي بقوة هائلة .
إنه الوهم .
الوهم الذي يفعل العجائب في قلوب البشر ونفوسهم .
واقتربت من الرجل لأتأكد من موته .
وكنت ارتجف من الخوف .
ووصلت قرب الجثة .
وانحنيت فوقها اتفحصها .

فلاح لي ان الطعنة التي أصبته بها لم تكن مميتة .

لم يكن عادل البسام مصاباً في صدره كما لاح لي في بادىء الأمر .

لقد كان مصاباً في كتفه ، في أسفل كتفه من الأمام . أي ان الطعنة كانت فوق الصدر فكيف مات ، والطعنة غير مميتة .

واحترت في الأمر .

وفجأة خطر على بالي خاطر !

فاشتد ذعري . أتراه يتظاهر بالموت ؟

وحاولت الابتعاد عنه .

إلا ان عادلاً ، وقد كان فعلاً يتظاهر بالموت ، وثب اليّ محاولاً القبض عليّ .

وهربت . .

ولحق بي ، وقد انتزع الخنجر من صدره ورماه بعيداً .

واستطاع ان يمسك بثوبي الطويل قبل ان أخرج من الغرفة .

وشهر مسدسه وصوبه الى رأسي .

وصرخ بي : سأفتك بك يا مجرمة . يا زعيمة عصابة الموت ورئيستها ، يا رفقة .

وأدركت ان امري افتضح .

يا ويلي ! .

المفتش عادل البسام سيفتك بي ويثأر لنفسه مني .

ليس له إلا ان يشد زناد المسدس المصوب الى رأسي لتصبح رفقة في عالم الأرواح .

وشدني المفتش بثوبي .

ثم أفلت الثوب الطويل الفضفاض ليمسك بيساره بيدي ويضع فوهة المسدس بيده اليمنى على رأسي ويقول بغضب :

ـ قولي أين هو شيخ قصر الجماجم يا رئيسة عصابة الموت ؟. قولي وإلا أطلقت عليك الرصاص .

وحاولت التملص منه .

إلا انه لم يترك لي مجالاً للتملص ؛

فهو قوي البنية .

مفتول الساعدين .

لا سيما ان المسدس المصوب الى رأسي كان يزيده قوة ويزيدني ضعفاً .

وهمس عادل في اذني : إذا تفوهت بحرف صرعتك فوراً إياك ان تستنجدي بأحد .

وأيقنت انه سينفذ تهديده .

وحياتي لن تكلفه عناء ولا تعباً .

إذا ضغط على الزناد ، استقرت الرصاصة في نخاعي وقضي الأمر .

وللمرة الاولى في حياتي عرفت الخوف ، وقد شاهدت الموت بعيني .

ورحت أفكر بحيلة تنقذني منه .

إلا انني لم اوفق،

وكان عليّ ان أسرع في التفكير ، وفي اتخاذ القرار الحاسم ، الذي يكفل لي النجاة من الموت .

لأن تأخيري في رد الجواب على عادل البسام كان يعرّض حياتي للخطر .



وفيما أنا أفكر .

وفيما عادل يحاول إطلاق الرصاص عليّ ، فتح باب الغرفة فجأة .

وأطل منه عشيقي خالد ..

فقد قلق خاطر خالد عليّ بعد ان طال مكوثي في الغرفة مع عادل .

ولعل الغيرة العمياء هي التي دفعته الى اقتحام باب الغرفة على تلك الصورة .. فكان ان أنقذ حياتي .

ووثب خالد الى عادل كالثورة الجامحة .

وضربه بعصا على زنده فسقط المسدس من يده .

وارتد عادل على ذعر ، وقد فوجىء بوثبة خالد .

لا سيا ان المسدس سقط من يده .

وتراجع الى الوراء مسنداً ظهره الى الحائط .

ثم تناول المصباح ، والعهد عهد مصابيح الزيت في الجبال النائية البعيدة ، وحاول ان يقذف به خالداً .

وأدرك خالد نيته فهجم عليه يضربه بالعصا بجنون .

حيناً على رأسه .

وأحياناً على يديه .

وتارة على ظهره .

وطوراً في صدره ورجليه .

ولم يقف عادل البسام وقفة المتفرج .

بل راح يرفس خالداً برجليه ويكيل له اللكمات بيديه .

وتبين ان المفتش ملاكم بارع ، وانه قوي الى أبعد حدود القوة .

وأدرك خالد أي خصم عنيد هو خصمه .

فالتفت اليّ ، وكأنه يدعوني للاشتراك في المركة .

وخالد لا يجهل أي قوة هي قوتي ،وأي حيلة هي حيلتي.

ومواقفي في المكائد والحيـل والجرأة والقوة تشهد لي .

وكثيراً ما خضت معارك دامية مع أفراد العصابة فكنت أنتهي منها سليمـة من كل جرح ، في حـــين يخرج جميع أفراد العصابة مصابين بجراح ثخينة وكسور عديدة .

واسرعت إلى نجدة عشيقي .

وأمسكت بمقعد رفعته وانهلت به على رأس رجل الأمن .

فوقع في الارض فاقد الرشد .

ووقف خالد ، وهـو يلهث من التعب والدمـــاء تنزف من جراحه التي أصابه بها المفتش .

ووقفت أنا بعيدة .

وتقدم خالد مني يقول :

– ماذا ننتظر ؟ هـــل ننتظر ان يستفيق ليعود الى مهاجمتنا ؟

قلت :

– يجب أن نتدبر أمره .

وأسرعت بالخروج الى البهو الكبير .

ثم دلفت الى القبو ، أدعو أفراد العصابة : ناصر ، وعاطف

وكميل ، وأسعد ، ومنصور ..

وأسرع اللصوص كلهم ، وهم مدججون بالسلاح ، فهم يعلمون انني لا أدعوهم إلا في المحن الشديدة .

وقدتهم الى غرفتي ، حيث كان خالد منصرفاً الى تكبيل وتقييد عادل بالحبال .

وأمرتهم بنقل عادل إلى القبو الأسفل ، إلى حيث يقيم جميع ضحايانا ، مفتش الامن السابق ، وشيخ قصر الجماجم ، والمرأة الثرية التي كانت تعيش وحدها واختطفناها وسلبنا أموالها . وذلك الشاب الذي ورث مبالغ طائلة عن أبيه ، وذلك الموظف الكبير المتقاعد الذي سجناه في القبو وكنت أدعي أنني زوجته فأقبض مرتبه وأنفقه على العصابة .

وكانت طريقة عصابتنا في الوصول الى المال مبتكرة .

لم نكن نقتل .

ولم نكن نسرق الاموال .

بل كنا نعمد الى الحيلة ، فنحن نبحث عن الأغنياء الذين لا ورثاء لهم فنخطفهم ونعذبهم ونرغمهم على تسجيل أموالهم لنا .

او نرغم الغني على الزواج مني زواجاً صورياً فتنتقل تلك الاموال اليّ .

او نرغمه على تسليمنا أمواله بيده تحت الضغط والتهديد والارهاب .

ويوم اختطفنا كهل قصر الجماجم – عم بهاء – لم نكن نعلم ان له وريثاً ، وان هناك ابن أخيه بهاء العواد .

ولو اننا علمنا ذلك ، لما أقدمنا على ما أقدمنا عليه .

وعندما علمنا ان الوريث الوحيد للكهل هو بهاء عمدنا الى تخويفه بشائعات الارواح ، وأوفدنا خالداً الى القصر للقيام بدور المارد الاسود الجبار...

وحمل اللصوص عادلا ، المقيد اليدين والرجلين الى القبو .

وفيما هم يخرجون به قال خالد لهم : اليّ بشيخ قصر الجماجم انني اريد ان اتفاهم معه .

وذهبوا ..

وبعد قليل عاد منصور يقود أمامه شيخاً أبيض الشعر ، رث الثياب ، محدودب الظهر ، هزيلاً .

وكان يبكي ويسترحم ويستعطف .

لقد كان منظره يثير الشفقة والرحمة والأسى .

وتقدم ذلك الشيخ المسكين مني وركع أمامي وبكى ، وتمتم : رحماكم لا تقتلوني ، لا تذبحوني ، اتركوني ، دعوني أرجع إلى قصري فأموت هناك مرتاحاً من عذاب الحياة .

ولم أجب بحرف .

إلا ان خالداً تقدم منه يرفسه برجله فتدحرج على الأرض وأجهش بالبكاء .

وأمسك خالد بشعر الشيخ الابيض يرفعه عن الارض وهو يضحك .

وراح الشيخ المسكين يبكي بدموع تفتت الاكباد .

وتمتم : رحماكم ، رحماكم ، رحماكم .

وعاد خالد الى لطمه بقساوة .

وتوجه الشيخ نحوي يقول وهو يمسح دموعه : رحماكِ يا سيدتي إنقذيني من هذا العذاب ، ارحميني .

وضحكت منه .

لم أكن أشعر بالحنان ، ولا بالعطف ، ولا بالحنين .

كان قلبي متحجراً .

لم أكن استطيع ان اذرف دمعة واحدة .

ولم اشعر يوماً بلذة الدمع العميقة القرار .

ووقف الشيخ يبكي ويولول : رحماكم رحماكم ، ارحموني يرحمكم الله .

وعدنا الى الضحك .

كان منظر الشيخ عندنا يثير الضحك .

أما عند أي إنسان آخر ، فقد كان ذلك المنظر الرهيب يثير الأسى والدموع .

وقهقهنا .

وقال الشيخ :

ـ ألا تعرفون الله ؟ ألا تخافونه ؟

وازددنا ضحكاً وتهكماً على الشيخ .

وراح خالد يرفسه فيتدحرج نحو منصور .

ليعود منصور إلى رفسه ودحرجته نحو خالد .

وكان الشيخ في حال إعياء وتعب وألم شديدة .

وكانت دموعه تنسكب غزيرة على وجنتيه .

وكان يسترحم ويستعطف ويتمتم :

ـ خذوا أموالي ، قصري ، ثروتي،ولكن أبقوا على حياتي ، لا تقتلوني ، رحماكم .

وقهقهت .

وقلت :

ـ أموالك ؟ ثروتك ؟ وهل تملك قرشاً واحداً ؟ عندما طلبنا منك تلك الأموال ثمناً لحياتك الشقية رفضت وأبيت .

قال :

ـ الآن ، الآن أرضى بكل ما تأمرون ، رحماكم .

قلت :

ـ الآن فات الآوان ، انت لا تملك شيئاً على هذه الأرض ، لا يمكنك الآن ان تمد إلى أموالك يداً.هي ملك ابن أخيك الأبله ، وهي ستتدفق عما قريب بين أيدينا ، انت الآن ميت . والكل يعلم ذلك ، لقد أشيع أنك مت وأن الارواح الشريرة

حملت جثتك الى عالمها المجهول ، أنت ميت ميت ، وسيلحق بك ابن اخيك المجنون .

وذعر الشيخ ، وتمتم :

ـ ماذا فعلتم ايها المجرمون ؟ وماذا ستفعلون بابن أخي ؟ أتقتلونه ؟ ألا ترحمون شبابه ؟ ألا تشفقون عليه ؟ ألا يوجد في قلوبكم ذرة من رحمة وحنان ؟

وعدنا الى الضحك ،

وقال خالد : : إذا شئت ان ينجو ابن أخيك وان تنجو أنت فما عليك إلا ان ترشدنا إلى المكان الذي خبأت فيه ثروتك وأموالك .

قال الشيخ : أموالي كلها في المصارف .

قال خالد : كاذب ، ان الأموال الموجودة في المصارف هي جزء ضئيل من ثروتك الهائلة ، نريد ان نعلم أين خبأت أموالك ؟

فصمت الشيخ .

واستأنف خالد الكلام ليقول : أما إذا إصررت على الصمت فنحن سنخطف أنفاسك .

وظهر الرعب في عيني الشيخ وتمتم :

ـ أنا لا أستطيع ان اتكلم لا أستطيع ، لن أقول لكم أين وضعت ذهبي ؟

فقهقه خالد : إذن سنموت ! .

واقترب خالد من الشيخ فأخذ يرتجف .

لقد كان خائفاً هلعاً .

إلا أنه لم يشأ ان يشتري حياته بأمواله .

يا لهذا الحاكم الجبار الذي يسمونه مالا والذي يعبـده البشر ويتفانون في عبادته .

وهو يساوي عندهم الروح والحياة .

وأخذ الشيخ يرتجف ، ويستنجد ، ويسترحم، ويستعطف :. رحماكم ، رحماكم .

وقهقهنا .

انه يسألنا الرحمة .

وهل ثمة في قلوبنا ذرة من رحمة وحنان ؟

وهل يمكننا ان نعمل ونحصل على لقمة الخبز إذا فتحنـا قلوبنا للرحمة والشفقة والعطف والحنان ؟

مساكين البشر مساكين يا رفيقاتي ، انهم يعدون وراء المال والمال يهرب منهم ، ولو انهم أدركوا حقيقة الحياة لما أعاروا المال أدنى اهتمام .

لأن آخر شيء يمكن ان يسعد الانسان هو المال .

ان ذرة من اطمئنان ، وسلام ، وعطف ، وحنـان تساوي أموال العالم وذهب الأرض .

وعاد الشيخ الى التوسل ، والى الاستعطاف .

فما كان من خالد إلا ان رفسه .

ونظر الى اللص منصور يقول :

ـ عد بهذا الشيخ المجنون الى القبو ، ليس لديّ من الوقت ما اضيعه في الاستماع الى بلاهته وهذيانه .

واقترب منصور من الشيخ محاولا السير به الى القبو .

إلا ان الشيخ تراجع الى الوراء ، وقد استأسد وحمل مقعداً محاولا ان يضرب به منصوراً .

فوقفنا نشاهد محاولة الشيخ المسكين ونحن نضحـــك .

ولم يستطع الشيخ ان يرفع المقعد فتهاوى ليقع على الارض ويقع المقعد فوقه .

وعدنا الى الضحك والاستهزاء .

وتقدم منصور من الشيخ يجره الى القبو .

وكان منظر الشيخ المسكين يفتت الاكباد ، وهو يبكي .

لقد كان يجهش بالبكاء ، ويولول ، ويستنجد ويسترحم .

إلا إننا لم نستمع الى استنجاده ولم نرحم حاله .

ولم نستجب لاسترحامه .

وجلست وخالد نرسم الخطط ، خطط المستقبل .

وكنا قد بدأنا نخاف ذلك المستقبل المجهول .

كان المستقبل يبدو أمامنا قاتماً مخيفاً .

لم نكن نعلم الى أين سنصل ؟
فنحن قد ارتكبنا جرائم عديدة .
وأقبية قصرنا ملأى بضحايانا .
لقد كنا أغنياء ، أغنياء جداً .
إلا ان أموالنا كلها كانت ملطخة بالدم .

لم تكن تلك الاموال تستطيع ان تحمل إلينا الراحة والاطمئنان .

كانت كالشبح المخيف يطاردنا أنّى اتجهنا وإلى اين سرنا .

وقال خالد : والآن ماذا سنعمل يا رفقة ؟

قلت : علينا ان نتخلص من جميع هؤلاء الذين نسجنهم في القبو ، ان وجودهم هنا خطر علينا . من يدري ماذا سيكون إذا قدر لأحدهم أن يهرب من أقبيتنا سيكشف امرنا ونذهب كلنا الى السجون ، والكثيرون منا يتخطون السجون الى المشانق .

قال خالد : ولكن كيف نتخلص منهم وعددهم ليس بالقليل

قلت : يجب ان نتخلص منهم دفعة واحدة ، نحرق القبو بهم .

قال : وإذا قدر لأحد أن يفر من النار ؟

قلت : نفتك به بالرصاص ، سنضعهم كلهم في القبو البعيد

عن هذا القصر ، في القبو الجاثم عند آخر الحقل الواسع الاطراف ويحيط رجالنا بالمكان ويتأهبون لأطلاق الرصاص على كل من تسول له نفسه الهرب ، ثم نصبّ كمية كبيرة من البترول على القبو ونضرم النار بهم .

قال خالد : هذه خطـــة لا تضمن لنا النجاة ، إذا قدر لأحد ان يمر بالقبو المحروق ويشاهد الجثث ماذا ستكون حالنا ؟

فضحكت وقلت : عندئذ نرجع الى شائعـــة الارواح ، الارواح انتقمت من اعدائها ، فأحرقت المكان بهم .

قال خالد الحقيقة يا رفقة انني أخاف المستقبل . وجـــود عادل البسام في أقبيتنا يخيفني ، يجب ان نتخلص من هـــذا الشاب اولاً ، ثم نعود الى قتل كل واحد منهم على حدة ونرمي جثته في البئر ، هذه خطة مضمونة ، أرى ان نبدأ بقتل عادل ثم نصرع شيـخ قصر الجماجم ، ثم المرأة العجـــوز ، ثم الشاب المتمرد ، الى ان نقضي على الجميـع ، كل يوم نفتك بواحد منهم ، وعندما نقضي عليهم كلهم نبرح هذه البلاد حاملين معنا أموالنا ونضيع في بلاد الله الواسعة الأرجاء .

قلت : أنا لا أمانع في أي خطة ترسمها ، ولكن انتخلى عن ثروة شيخ قصر الجماجم ، وهي ثروة طائلة ؟ يجب أن نصل الى تلك الثروة ونحملها معنا إلى حيث نذهب .

قال : الطمع أضر وما نفع . ما لنا ولهـذه الاموال . مـا عندنا يكفينا مدى الحياة . سنقسم اموالنـا الى قسمين . قسم نوزعه على افراد العصابة وقسم نحتفظ به ، انه لي ولك ، نحمله معنا الى مجاهل الأرض ونعيش عيشي الاغنياء السعداء .

مسكين خالد ..

لقد خيل اليه ان الاغنياء سعداء .

وهو لو علم حقيقتهم لأدرك انهم أتعس تعساء الأرض .

قلت : لا يا خالد . لن نرحل عن هذه البـــلاد ، إلا وقد قبضت أيدينا على ثروة الشيخ كلها ، كلها .

قال : لقد بدأت أخاف اكتشاف امرنا .

قلت : لا تخف ، اتكل على رفقة . انا أضمن لك النجاة بما لي من نفوذ وسطوة .. وجمال .

قال : ولكن كيف سنصـــل الى ثروة الشيخ ، وهو لا يعترف بمكان القسم الأكبر منها . أما القسم الآخر فقد انتقل الى ابن اخيه الشاب الأبله ؟

قلت : لا تخف ، اطمئن . رفقة ستصل الى هذه الثروة .

— وكيف !؟

قلت : إسمع يا خالد ، أنا سأتوجه الى قصر الجماجم ، فأغري بهاء العواد بجمالي وأجرّه ورائي بخيـــط من الحب واهٍ دقيق ..

فذعر خالد ، وغضب ، وتمتم بحنق :

– لا ، لن تذهبي وحدك الى ذلك القصر . انا ذهبت إليه وطفت ردهاته وأقبيته وغرفه كلها . انه قصر مخيف ، ليس لامرأة مثلك ان تحل فيه.

وقهقهت بهزء ، وقلت :

– أتخاف عليّ من القصر أم من الشاب الوسيم الذي يحل في القصر ؟

لقد كنت أعلم يقيناً ان الغيرة تحرق قلب خالد .

فهو يغار عليّ من النسيم ، ومن النور ، والماء .

وتابعت قولي : أنا سأذهب الى قصر الجماجم يا خالد ، وسأستولي على القصر وعلى كل ما في القصر ، وعلى ثروة الشيخ الطائلة . بهاء العواد سيتدله في حب رفقة ، وسيهبها كل ما وصل اليه من ثروة عمه المسكين .

فتمتم خالد : رفقة ، أنسيت يا رفقة يوم ارسلنا الى ذلك الشاب رجال العصابة يمثلون امامه دور الارواح فقابل عملهم بالهزء والسخرية ؟ او نسيت يوم قمت انا بتمثيل دور المارد الاسود الجبار وكاد يكلفني هذا الدور حياتي ؟ ان هذا الشاب يختلف كل الاختلاف عن جميع ضحايانا ، فهو شجاع قوي قدير ، إني اخاف عليك منه يا رفقة .

قلت : وماذا تريد ان تفعل به ؟

قال : أرى ان اذهب فأقضي عليه بطعنة خنجر او برصاصة من مسدسي ونستولي على القصر وعلى كل ما في القصر .

وعدت الى الضحك بهزء لأقول :

مجنون ! ، انكتفي بالقصر وبكل مـا في القصر يا خالد ؟ وماذا يفيدنا القصر ونحن راحلون عن هذه البلاد ؟ يجب ان تتدفق ثروة الشيخ بين ايدينا . يجب ان تنتقل تلك الاموال من يد الشاب بهاء العواد الى ايدينا وتسجل في الدوائر الرسمية .

وذعر خالد وانا اتحدث عن الدوائر الرسمية ، وقال :

- ماذا تقولين ؟ الدوائر الرسمية ؟ اتريدين ان تذهبي بنـا كلنا الى السجون ؟

وقهقهت ضاحكة : الى السجون ؟ لا ، كن آمنـاً يا عزيزي . نحن في مأمن من السجون ، لن يدري بنا احد .

قال : أرى ابواب السجون بدأت تتحفز لتطبق علينـا يا رفقة .

قلت : لا تخف ، لا تخف ، أي عقل يمكنه ان يتصـور ان رفقة هي رئيسة عصـابة الموت ؟ وأي مسكين ستحدثه النفس بمهاجمتنا في قصرنا المنيع ؟ لا تخف ، لا تخف ، أنت تعلم اي مركز تحتله عشيقتك رفقة في قلوب العظـام . الكل يحبني والكل يتمنى بسمـة من شفتي ونظرة من عيني وكلمة عطف اجود بها عليه ، لا تخف ، لا تخف .

قال : رفقة ! ليس مسيرك بالمسير المعتدل . هـذا المسير لا يروقني ، ستتهورين وتهورينا معك . لن إسمح لك بالذهاب الى قصر الجماجم حيث يقيم الشاب الشاعر .

قلت وانا ابتسم :

– يا لك من عاشق غيور .

فقاطعني قائلاً : اني لغيور ، لقد بدأت الغيرة تلتهم فؤادي فحذار حذار من خالد يا رفقة .

قلت بغضب : خالد !. أنت تهدد ؟

قال وقـــد بدأ الغضب يهزه هزاً : أجل أنا أهدد . أهدد وأستعد لتنفيذ تهديدي . أيلوح لك ان خالداً هين الجانب ؟ لا وحق السماء أنا لست ممن يصعب عليهم الانتقام .

وظهر الغضب جلياً في عينيه .

وكان مخيفاً في غضبه ، وصرخ :

– رفقة ؟

والتفت اليه لأقول بغضب يمازجه الهزء والسخرية :

– قل ما بك .

وأطلق خالد قهقهة مرعبة .

واقترب مني ، وغرز نظره في عيني فلمع الغضب الشديد في نظره ، وتمتم :

– أنا خالد يا رفقة .

قلت بهزء :

– وإذا كنت خالداً ، أتخيفني ؟

وأدرت له ظهري ، وهممت بالمسير .

إلا انه لحـــق بي وأمسك بكتفي من الوراء يهزني بغضب وحنق ، قائلاً .

– رفقة ! . أنت تحت رحمتي وسلطتي ، كلمة واحـــدة من فمي كافية لثورة رجالنا عليك وتمزيق جسدك البض الجميـــل .. اعمالك المشينة لم تعد ترضينا . كلنا ناقمون عليـــك . انا وناصر وحامد وسعيد ومنصور . كلنا نريد التخلص منك ومن حماقتك وسخافتك وغطرستـــك وكبريائك ، لن نسكت عنـــك بعد الآن ، ولن نسمع لك كلمة ، الموت لك يا رفقة .

وكان تهديده قاسياً رهيباً .

كانت الكلمات تخرج من فمه كالرصاص .

وكان يهزني بغضب .

إلا انني حاولت الظهور بمظهر المرأة الجريئة فأجبته :

– تهديدك هذا لا يخيفني ، رجال العصـــابة كلهم بجـــانبي . انهم يحبونني ويحترمونني ويأتمرون بأوامري . سيفتكون بك عند اول إشارة مني.

وعاد الى التهديد .

ورفع يده محاولاً لطمي وقال :

ـ سأسحقك سحقاً يا شقية .

وأمسكت بيده أشدها .

وقلت : أخرج من قصري يا نذل . أي سلطـــة لك عليّ ؟ أخرج . أخرج .

وأمسك بيدي يشدها قائلاً :

ـ رفقة ! . أنا صاحب الفضل الاول والاخـير عليكِ . انا الذي جعل منك أمرأة غنية يا رفقة .

قلت : أجل ، لقد جعلتني غنية ولكنك جعلتني مجرمة .

قال ضاحكاً :

ـ وهل كنت قبل ان تتعرفي إلى تلك المرأة التقيـة الورعة المصون ؟ انا اعرف من انتِ ، أنسيت يوم رفعتك من الاوحال؟ أنسيت يوم عثرت عليك في ثيابك الرثة وشعرك المشعث وقدميك الحافيتين تلتقطـــين النفايات وتفتشين عن ثمرة فاسدة او طعام ملقى للكلاب ؟

وصرخت في وجهه :

ـ اسكت . اسكت .

إلا انه لم يسكت .

بل مضى يصيح بغضب : انسيت يوم كنت كالهرّة القذرة تتمرغين في الاوحـال ؟ هل نسيت يوم استنجدت بي ؟ يوم طلبت مني رغيفاً تسدين به الرمق ؟ يوم لحقت بي كالمجنونة

وقد وقعت في غرامي؟ويوم قدتك الى المغارة ، مغارةعصابتنا في اعالي الجبال فآويتك واطعمتك واطفأت غليلك ؟ انسيت يوم وقفت في رجالي ادعوهم لأن يأتمروا بأمرك وقلت لهم: « هذه هي رئيستكم منذ اليوم » انسيت كل ذلك يا مجرمة ؟

قلت بحنق شديد :

لقد اخذت ثمناً لما أديت لي من خدمات فماذا تريد بعد ؟

قال وقد لمع الشر في عينيــــه وعاد الى الاقتراب مني بوحشية :

أريدك . اريدك انت . أتسمعين؟ انت ملـك لخالد . ليس لعــين ان تنظر إليك إلا عيني ، ولا لشفة ان يهمس في اذنك كلمة إلا لساني ولا ليد أن تطوق جيــدك إلا يدي ، ولا لشفة ان تطبع على خديك قبلة إلا شفتي .

فرمقته بنظرة هزء وسخرية . وحاولت الابتعاد عنه

إلا ان خالداً شدني اليه وصرخ : انت لي ، لي أنا أتفهمين ؟
وصرخت به :

— كذبت ايها الشرير . لقد كنت لك في زمن مضى ، أمـا الآن فأنت في وادٍ وأنا في واد . لن اكون لك بعــد اليوم يا سافل .

وزأر :

— انت لي في كل زمان ومكان ، لن تكوني لأحـد غيري

يا فاجرة . في الدقيقة التي تفكرين بأن تكوني لرجـل غيري سيطبق الموت عينيكِ . ان خنجري مـا زال مصقولاً ، ويدي مستعدة للخنق ، ومسدسي شديد الظمأ لنفث اللهب .

وشد على يدي فخيل اليّ ان عظام معصمي تحطمت تحت يده . وشددت بيدي أسحبها من يده، وأرفعها لتنهال على وجهه بصفعة قوية .

وكنت قد تعبت .

ووهنت قواي فسقطت على مقعد وثير ألهث من التعب .

وهب خالد كالمجنون ، وقد استبد الغضب به وزأر :

اتصفعينني يا شقية ؟. أتبلغ بك الحماقة الى هذه الدرجة من التهور . والله لأدفعن بك الى القبر . لقد حكمت عليك بالموت، وأنت تعلمين قيمة الحكم الذي يصدره خالد .

وكان على ثورة جامحة ..

كان منظره مخيفاً .

فقد اندفع الغضب في عينيـه وفي كلماته وفي كل حركة من حركاته المثيرة أمامي .

وأيقنت انني هالكة لا محالة .

انا اعلم ان غضب هذا الرجل لا يتوقف عند حد .

عندما يثور يصبح كالثور الهائج ، تلتهم ثورته المندلعة كل من وما يقع في طريقه .

فهو لا يتورع عن الفتك بمن يعترض سبيله ساعة الغضب .
والذين ذهب بهم غضب خالد إلى القبور كثيرون .
ولذلك فقد كان جميع أفراد العصابة يخشون غضبه ويتّقون شره .

وكان عليّ ان أحول دون وصوله اليّ .

من المؤكد انه لن يتورع عن قتلي إذا وصل اليّ .

وعمدت الى الهرب .

وتراجعت الى الوراء نحو الباب محاولة الخروج من الغرفة .

إلا ان خالداً أدرك ما يجول بخاطري فوثب إلى الباب يقفله ويسند ظهره اليه وينظر اليّ نظرات مرعبة مخيفـــة تدل على مدى غضبه الشديد ، وعلى رغبته الملحاح في التخلص مني .

وأيقنت انني هالكة .

خالد لن يعفو عني .

ليس لي إلا ان أجابه القوة بالقوة .

إذا وهنت قواي .

وإذا ترددت في الدفاع عن نفسي سأموت .

ورحت أبحث عن شيء أرد به ضرباته .

ورأيت ان ابادره الهجوم قبل مبادرته...

فأسرعت الى مقعد كبير أرفعه بين يدي وأقذفه به .

وخيل إلي ان المقعد سيحطم رأسه .

إلا ان خالداً كان خبيراً في مثل هذه المعارك ، فألقى بنفسه على الارض ومر المقعد فوق جسده دون ان يمسه .

واشتد به الغضب وقد هاجمته .

وأيقنت انه سيفتك بي إذا لم أفتك به .

أحدنا سيموت ، حتماً . إما أنا ، او هو .

وبدأ الخوف يشحذ همتي ويرسل القوة في جسدي .

فأسرعت الى آنية من زجاج معدة للزهور أرفعها بيـــدي وأقذف بها خالداً .

وأيقنت ان الزهرية ستحطم رأسه وتريحني منه .

إلا ان يقيني تحول إلى شك .

والشك تبخر كالاحلام وقد رأيته يتناول الآنية الزجاجية بيده ويقهقه .

وأشتد بي الخوف .

وأيقنت ان خالداً سيقذفني بالآنية .

أيقنت ان حياتي انتهت .

خالد لا يخطىء الهدف .

الويل لي ، الويل لي .

ولم يدع خالد الفرصة تفوته فأسرع الى قذف الآنية .

وكان هدفه رأسي إلا انني تمكنت من اتقاء الآنية .

وتراجعت إلى الوراء أختبىء وراء مقعد كبير .

وتقدم خالد مني ببطء .

وقد أيقن انني أصبحت تحت رحمته .

ووقف يقول :

أتختبئين ؟. أين قوتك وبطشك وتهديدك يا رئيسة عصابة الموت .

واستفزني .

وزادني استفزازاً ، وقد وقف يشعل سيكارة بكل هدوء . فكأنه يهزأ بي .

وعدت أبحث عن شيء أرميه به .

ولاح لي المسدس .

مسدس عادل البسام الذي شهره وحاول إطلاق الرصاص عليّ قبل دخول خالد .

وكان المسدس ملقى على الارض ، فوثبت اليه التقطه وأصوبه الى خالد .

وكان هو قد أشعل اللفافة وراح يمجها على مهل .

وشاهد فوهة المسدس مصوبة إلى صدره فخاف .

إلا انه اعتصم بالجرأة .

ووقف .

لم يهرب .

ولم يستنجد .

ولم يسترحم ·
كان كالطود يقف في مهب العاصفة ·.
وبيد ترتجف ضغطت على زناد المسدس فانطلقت الرصاصة .
وارتجفت وقد انطلقت الرصاصة من المسدس ·
وازداد ارتجافي عندما شاهدت لفافة التبغ تسقط من بين شفتيه الى الارض ·
ثم يهوي خالد قريبا .
وتأكدت من انني أصبته .
ترى أتكون إصابته قاتلة ؟
اذا مات خالد فرجال العصابة سيثورون علي ، وهم الذين يكنون له كل محبة وتقدير .
وشعرت بالوهن .
لقد شعرت انني أكاد اسقط الى الارض .
وسقط المسدس من يدي .
وإذا بخالد يرفع رأسه .
وينظر إليّ نظرات هزء وغضب .
ونهض .
نهض واقفاً وأخذ يقهقه .
وعندئذ · .
عندئذ فقط تأكدت من انني اخطأته وان الرصاصة لم

تصبه .

لقد ادركت انني اخطأت الهدف .

وازداد خوفي ، وقد رأيت خالداً يهجم عليّ قاتماً سكفيه محاولاً خنقي .

وتراجعت الى الوراء ، وقد أيقنت انه لن يعفو عني .

انه جبـار مخيف .

لا يعرف الرحمـة .

ولا يتعرف الى الشفقة .

الويل لي ، الويل لي .

وكان خالد يدنو مني ببطء ، وانا اتراجع الى الوراء .

وفيما اعود الى الوراء وانا انظر الى خالد عثرت رجلي بالمقعد فهويت الى الارض .

واقترب خالد مني ليجثم على صـدري .

ويطبق بيديه الفولاذيتين على عنقي .

وأدركت ان ساعتي الاخيرة قد دقت .

سيخنقني ويخلص مني .

وفي تلك الدقيقـة جنحت بأفكاري الى الله .

ان الانسان لا يخاف الموت .

انه يخاف المثول أمام رب الموت والحياة .

لا سيما إذا كان الانسان مجرماً ثقيل الضمير ، مخضب اليدين بالاثم والخطيئة ..

عندئذ فقط ، ساعـــة الموت ، يشعر الانسان « بالثقل » يجذبه الى الجحيم إذا كان شريراً ، او « بالخفة » ترفعه الى فوق ، الى السماء إذا كان طاهراً .

والضمير وحده ميزان اعمال الانسان ساعة الموت ، أمـــا بعد الانطلاق ، فالكلمة فيه الى الخالق الاوحد .

وانا شعرت تلك الساعة بأنني انجذب إلى تحت .

الى أسفل الدركات .

وشعرت بأنني ثقيلة جداً .

شعرت بأن الارض تشد بي الى التراب .

لقد رأيت جرائمي كلها أمامي تلك الساعة .

رأيت الجثث التي فتكت عصابتي بأصحابها .

ورأيت الاموال التي سرقناها من صناديق الاغنياء .

ورأيت طيشي ومكري وخداعي .

رأيت كل خطاياي تحيط بي وتدفعني الى الجحيم .

وحاولت الصراخ .

حاولت الاستنجاد .

فلم أستطع .

لقد اختنقت الكلمات على شفتي .

وبدأ خالد يشد على عنقي وهو يزأر : يا مجرمة ، يا مجرمة .

وبذلت الجهد الاخير للنطق بكلمة واحدة قبل رحيلي عن

هذه الارض .

واستطعت بعد جهد كبير ان اغتم :

ــ خالد ! .. حبيبي .

وشعرت بأن أصابع خالد المثبتة بدأت تنفرج عن عنقي ، وقد وقفت كلمة « حبيبي » في اذنيه .

ترى هل لست هذه الكلمة قلب عشيقي ؟

وتراجع خالد عني .

ووقف . ورفعنـــي بين يديه هامساً :

ــ « حبيبي ، حبيبي » .

لقد كان يردد الكلمة التي تلفظت بها وهو في حـــال نفسية مؤثرة .

حتى اللصوص المجرمون يدخل الحب الى قلوبهم ، فيحركها وتعبث أصابعه السحرية بأوتارها .

وأدركت ان كلمة « حبيبي » تركت في نفس خالد الأثر البعيد .

وكنت على يقين من ان خالداً يحبني

انه ليضحي بكل ما يملك في سبيلي .

فلماذا لا أعمد الى إثارة هواه للتأثير على عقله ؟

وطوقني بذراعيه .

وقبلته...

وتظاهرت بالعياء وبالألم .

فما كان منه إلا ان راح يعمل على إسعافي بالمنعشات وبالتدليك وقد ظهر القلق على وجهه .

وتمتم : رفقة ، حبيبتي رفقة !

فتظاهرت بالاغماء .

ولم أجب .

وازداد خوفاً عليّ .

وراح يغمرني بالقبـل وبالمسعفات ويناديني بأرق وألطـف الكلمات : رفقة ! .. رفقة ، حبيبتي . ما بك يا حياة خالد ، ما بك ؟

وفتحت عينيّ ، وقد ادركت ان ما قمت به أصبح كافيـاً لضمان حياتي .

ونظرت الى عينيه .

وأجهشت بالبكاء .

ان السلاح الوحيد الذي تملكه المرأة في كل آن وكل مكان والذي تستطيـع بواسطته ان تحصل على ما تريد من الرجل هو البكاء .

وانتضيت سلاحي ، سلاح المرأة ، في وجه خالد فبكيت .. لقد بكيت بكاء مراً .

وكانت دموعي تنسكب غزيرة على خديّ .

لقد كانت عيناي تبكيان .

أما روحي فكانت تضحك .

كنت أضحك في سري ، لنجاتي من الموت ولانخداع خالد بدموعي .

وضمني خالد الى صدره .

وراح يمسح دموعي بمنديله .

وأجلسني على مقعد وثير .

وجلس قربي ينظر الي برفق ويواسيني ، ويكفكف دمعي.

وهمست في اذنه :

ــ خالد .. على ماذا أقدمت يا خالد ؟ أهكـذا تهون لديك حبيبتك رفقة يا خالد ؟ أنسيت حبنا العظيم يا حبيبي أنسيت ؟

قال :

ــ كدت أنسى يا رفقة . لقـد خرجت بي عن رصانتي وعقلي . ما أقدمت عليه أثار جنوني . أتطلقـين الرصاص على خالد يا حبيبتي ؟ ما عساك فاعلة ، وقد مات خالد برصاصـك الاثيم يا رفقة ؟ أهكذا يذهب الغضب بعقلك يا حبيبتي ؟

وألقيت رأسي على صدره . وقلت :

ــ خالد . الغضب جنون . والغاضب مجنون لا يعلم ما يقول ولا ما يفعل . سامحني ، سامحني يا خالد .

قال خالد :

أنا أحبك يا رفقة ، احبك حباً هائلاً عظيماً ، ولولا هـذا الحب لكنت الآن في العالم الآخر . حبي الشديد لك يدفعني الى الغيرة العمياء القاتلة .

فابتسمت له ، وقلت :

ـ كن آمناً يا خالد ، كن آمناً يا حبيبي . انا لك مخلصة وفية ، لن أخون حبك لن أخون !

وأخرج خالد من علبة التبغ لفافتين أشعل احداهما لنفسه وأشعل لي الثانية .

والتفت الي يقول مازحاً :

ـ لقد اطلقت الرصاص عليّ على بعد أمتار قليلة إلا أنك أخطأت الهدف . أنت لست بالتلميذة الماهرة التي تحسن إطلاق الرصاص . إنك ما زلت بحاجة الى دروس كثيرة يا رفقة . قد تحتاجين يوماً الى اطلاق الرصاص على أحد ، ومن يدري ، قد تعودين إلى إطلاق الرصاص عليّ يوماً . لذلك فأنا ساعمد الى تعليمك مهنة القتل بالرصاص .

وابتسمت وقلت :

ـ لا ، أنا لست بحاجة الى هذه المهنة المشرفة ، ما لديّ من المهن يكفيني ويزيد .

واستوى خالد في مقعده ليقول :

ـ والآن ، على ماذا عولت يا رفقة ؟ ما هي الخطة التي يجب

تنفيذها الآن ؟

ونفثت دخان اللفافة لأقول :

– إسمع يا خالد · انا سأذهب الى قصر الجماجـم ·سأمطتي جواداً وأتوجه الى القصر ، وهناك أمـام القصر اتظاهر بأنني سقطت عن الجواد . وأستنجد وأبكي وأولول وأفقـد رشدي . وأتظاهر بالاغماء ويأتي الذين في القصر لنجدتي فيحملوني ويدخلون بي الى القصر · وهناك داخـــل القصر أستفيق . وأنظر حولي لأتمتم : « أين أنا ؟ . ان رأسي يؤلمني ، صـــدري .. يدي .. رجلي . لقد كنت أتنزه فكبا الجواد بي وسقطت ، أعيدوني الى قريتي ، أعيدوني الى بيتي · »

ويجيبونني : خففي عنك ايتها السيدة ، أنت في مأمن .

وهكذا أخطو الخطوة الاولى وأحتـل القصر على الرحب والسعة ·

قال :

– يا لك من داهية يا رفقة .. وبعدئذ ؟·

قلت :

– وبعدئذ أخطو الخطوة الثانية ، فأتظاهر بأنني احب بهاء العواد الشاعر المجنون · وأحمله على حبي · كل ما أملك من وسائل المكر والخداع والاغراء سيكون سلاحي للأستيـــلاء على قلب بهاء · وقلبه سيكون طريقه الى عقله .

قال خالد :

ـ والخطوة الثالثة ما هي ؟

قلت :

ـ هناك خطوات عديدة . الخطوة الثالثـة ستكون فراري من قصر وادي الجماجم والعودة إليـك .. والخطوة الرابعـة ستكون اللحاق بي . بهاء سيلحق بي الى هنا وقد تيمه هواي . سيقع في الشرك . وهنا نتدبر امره . لن أرضى بالزواج منـه ، إلا وقد سجل لي كل ما يملك . وعندما تصبح الاموال والحقول والبساتين والكروم والقصر لنا سنبيعها ونضم ثمنها إلى أموالنـا ونهرب من لبنان إلى المهجر القاصي البعيد .

قال خالد بعد تفكير : أنا أخاف يا رفقة . أخاف أن تقعي أنتِ في الشرك فتحبين بهاء العواد وتلحقين به .

وقهقهت : أنا ؟. يا مجنون . هل يمكن هذا ؟ .

قال . كل شيء ممكن يا رفقة .

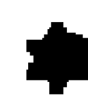
قلت : دع المزاح الآن.ليست رفقة بالمرأة السريعة الانقياد. أنا رفقة يا خالد . ألا تثق برفقة ؟

قال :

ـ انني لأثق بك الثقة العميـاء يا حبيبتي ، إلا ان الغيرة تعمي بصري وبصيرتي . حبي إياكِ يدفعني الى الغيرة ، والغيرة تدفعني الى الظنون ، والظنون تدفعني إلى ارتكاب الجرائم في سبيلك ، وفي سبيل هواك العميق القرار .

قلت : الحب الذي يضطرم في قلبك ، هو نفسه يضطرم في

قلبي يا خالد . والنار المتأججة في فؤادك هي هي النار المتأججة في فؤادي . مهلاً يا حبيبي مهلاً ، بعد أيام قليلة تنهي مهمتنـــا فتنتقل اموال شيخ قصر الجماجم الينا ونطير بهـا وبأموالنا الى الغرب حيث نعيش عيشاً هانئاً هادئاً مطمئناً »



وبدأت عقارب الساعة تشير الى التعانق عند منتصف الليل، والراهبة رفقة تروي سرها لرفيقاتها الراهبات .

وبدأ النعاس يدب الى أجفانهن . .

فتمتمت : هيا بنا يا رفيقاتي الى النوم . الليلة التالية سأتابع لكنّ قصتي .

قالت الراهبة شمونة : ولكن هـــل ذهبت إلى قصر وادي الجماجم . وهل تعرفت الى بهاء العواد الشاعر المجنون ؟ .

فأغمضت الراهبة عينيها كأنهـــا تستعيد ذكرياتها الهائلة الآفلة . وبدأت الدموع تنهمر على خديها من جفنيها المطبقين .

الفصل الرابع

وفي الليلة التالية التفّت الراهبات حــــول الراهبة رفقة طالبات اليها متابعة قصتها وإفشاء السر الدفين الجاثم في صدرها على ألم وحنين .

وجلست رفقة الراهبة تتابع قصتها الدامية ، وصورة الشاب لا تنسلخ عن يدها

لقد كانت تمعن النظر فيها من حين الى آخر والدمعــة عالقة بأهدابها .

واستوت الراهبــة المشرفة على الكهولة في جلستها حــول الموقد لتكمل لرفيقاتها ما بدأت به القصة المخضبة بالدمع وبالدم فقالت :

« يا رفيقاتي العزيزات . الانسان لا يعلم الى اين يسير ولا الى اين سيصل .

قد يسير الى القمة ليجد نفسه في الوادي السحيق .

وقد يشخص الى الوادي ليجد نفسه على القمة العالية الذروة، البالغة الارتفاع .

وقد يهوي الى الشر ويجد الخير في طريقه .

وقد يكون الخير مأربه فيرتمي بين أحضان الشرور والرذيلة .

لا نعلم اي طريق هي طريقنا .

ولا عند أي منعطف يكون الانقلاب في حياتنا ومصيرنا .

الله وحده يعلم ذلك .

وأنا ، الراهبة رفقة ، يوم سرت الى قصر الجماجم كان هدفي الشر .

ولكنني استفقت لأجد نفسي بين أحضان الخير الرائع الحسن البهي الجمال .

وامتطيت صهوة جواد أصيل في صباح يوم مبكر حلو النسمات .

وتوجهت الى قصر وادي الجماجم ، الى الشاعر بهاء العواد ، وأنا لا اعلم أي مصير ينتظرني هناك .

لقد كنت عازمة على إيقاع الشاب في غرامي ثم أتوارى عنه فيلحق بي إلى قصري .

وهناك ، إما ان نفتك به وإما ان نسلبه أمواله كلها ونطير الى اوروبا .

ووصلت أمام القصر .

فترجلت عن الجواد .

واستلقيت فوق صخر ناتىء .

وجرحت يدي ، وصدري .

وخدشت جيدي بأظافري.

واخذت أولول وأبكي واستنجد :

- الي ، الي ، رحماكم إلي إلي .

وإذا بباب القصر يفتح فجأة .

ويخرج منه بديع بثياب النوم .

وهرول مسرعاً الي.

وراح ينادي :

- بهاء ! .. بهاء ! .. بهاء !

وكنت قد تظاهرت بالاغماء .

فأسرع بهاء العواد يساعد صديقه بديعاً في رفعي عن الصخر والدخول بي الى القصر .

وهذا ما كنت أريده وأرجوه .

ومضيت في إغمائي الوهمي .

وألقياني فوق سرير وثير .

وراح بهاء العواد يعمــــل على إسعافي بالمنعشات وبالميـــاه وبالكحول .

أما بديع فقد جلس بعيداً ينظر إليّ وهو يبكي ويتمتم :

مسكينة كم هي جميلة أراها ستموت . يا للحسن البهي يذوي في التراب ويذبل .

وكنت قد تظاهرت بالاغماء فأسرع بديع النادر يساعد صديقه بهاء .

وبدأت اخشى ان يفتضح أمري ، إلا انني مضيت في اغمائي المزيف

وبعد وقت وطويل استفقت من الاغماء .

والتفت حولي على دهشة مزيفة لأتمتم : أين أنا ؟

ولامست يد بهاء العواد جبيني .

وابتسم لي وتمتم : لا تخافي ايتها الحسناء أنت في مأمن . أنت في قصر الجماجم بعيدة عن كل خطر .

وتظاهرت بالرعب والخوف : قصر الجماجم ؟

فقهقه بديع وقال :

– أتخافين ؟ مسكينة . لماذا لا تكون لك جرأة بديع ؟ منذ شهر وأنا أقيم هنا في هذا القصر عرضة لفتك الارواح الشريرة وشرهم دون ان يلامس قلبي الخوف . أنا بديع . أنا لا أعرف الخوف ابدا ... لا تخافي ، سأحميك بقوتي وبطشي وبأسي .

وكان منظره مضحكاً .

لقد كان الخوف ظاهراً في عينيه ، وهو يتحدث عن الارواح الشريرة .

أما بهاء فقد انصرف الى تضميد جراحي .

وكان جميلاً هادئاً رصيناً .

كان ذلك الوجه طافحاً بالسناء .

مغموراً بالنور .

ولم ينبس بهاء بحرف

بل مضى في صمته العميق .

ولم ينظر الى وجهي .

كأنه لايحفل بالحسن والبهاء الماثل امام عينيه .

وعندما أنهى تضميد جراحي دعاني إلى النوم .

قال :

– يجب ان تنامي وتستريحي ريثما تستعيدين قواكِ ايتها الحسناء .

وشكرته .

وتمددت في السرير ، ورحت أفكر :

ترى هل أتمكن من الاستيلاء على قلب هذا الشاب الجميل الوديع ؟

وإذا استوليت على قلبه ، هل أستطيع ان استولي على ثروته الطائلة ، على الذهب والمال والأملاك والقصر ؟

لقد كان كل مناي الاستيلاء على الثروة والعودة الى خالد ، والسفر الى اوربا .

ورحت أرسم الخطة ، وأنا مستلقية على السرير .

ولم استطع ان احدد تلك الخطة .

فتركت للاقدار تحديدها .

إلا انني عزمت على بدء طرح الشباك في طريق بهاء العواد ، ونمت :

لقد استغرقت في نوم عميق لأشاهد حلماً مرعباً .

لقد رأيتني استحم في بركة من الدم . وأنا أبكي .

لقد كانت الدموع تنهمر من عينيّ كالسيل الجارف .

لم تكن دموعاً بيضاء بل كان لونها شديد السواد .

وإذا بأفعى هائلة تلتف حول عنقي وترشف دموعي .

وأحسست وأنا في الحلم بأنفاسي تضيق . لقد كانت الأفعى الهائلة تشد على عنقي محاولة القضاء عليّ .

وإذا بحمامة بيضاء تهبط على الأفعى ، وتجثم على رأسها وتفقأ عينيها بمنقارها الصغير .

وإذا بالأفعى تترك عنقي وتنساب الى بركة الدم لتختفي فيها ..

وعندئذ رأيت دمائي دموعاً .

رأيتها بيضاء صافية كوجه السماء .

ومددت يدي محاولة إمساك الحمامة البيضاء إلا ان الحمامة طارت . ثم هوت في بركة الدم .

فرأيت ريشها الأبيض الناعم تصبغه الدماء القانية .

واستفقت مذعورة .

واستويت في سريري أفكر .

ما معنى هذا الحلم المرعب ؟

ولم استطع ان أجد له حلاً صريحاً .

إلا انني أدركت انني في خطر وان « حمامة » بيضاء ستنقذني مما أنا فيه .

هذا كل ما لاح لي من الحلم الغامض المجهول .

ونهضت من السرير .

ووقفت الى النافذة امتع نظري بجمال الوديان والتلال والجبال والأحراج .

وطالت وقفتي .

وكنت أرى جمال الطبيعة وأفكر في وقت واحد .

انني لأفكر في طريقة الحصول على ثروة بهاء العواد والفتك به .

لا يجوز ان تطول إقامتي في قصر وادي الجماجم الى اكثر من أيام ثلاثة ، أعود بعدها بالثروة الى خالد ، الى عشيقي خالد ،

ونحمل ثروتنا ونطير بهـــا الى اوروبا ، حيث نعيش عيشاً هادئاً مطمئناً .

وفيما أنا أقف الى النافذة طرق الباب .

وتمتمت : ادخل .

ودخل بديع يحمل لي القهوة .

وجلست أرشف القهوة .

وجلس بديع قربي يبتسم لي .

لقد كان بديع ضخم الجثة قوي البنية .

تلوح على محياه السذاجة والبراءة والبلاهة .

وسألني :

– من أنت ؟

هكذا « من أنتِ » .

بلا مقدمات ، ولا كلمات دبلوماسية ناعمة .

وقلت :

– انا ابنة رجل كبير جئت لأتنزه في هـذه الجبال فوقعت عن الجواد قرب قصركم . انني اعتذر على ما سببته لكم من قلق وانشغال .

وابتسم وتمتم :

– انتِ جميلة . جميلة جداً . وأرجو لك صحـــة ونشاطاً لتعودي الى والدك . قد يكون أهلك قلقين عليك . أتريدين ان

أذهب إليهم وأطمئنهم عنكِ ؟

قلت :

– لا لزوم لذلك . قريتي تبعد زهـاء ثلاثين كيلومتراً عن وادي الجماجم ولا لزوم لازعاج الخاطر الكريم . لقـد عودتهم الغياب عن البيت أياماً وأسابيـع فهم لن يقلقوا عليّ . ولكن أين رفيقك أيها السيد .. ؟

فقاطعني :

– أنا بديـــع . أنا اسمي بديـع . إسم على مسمى أليس كذلك ؟

فابتسمت :

– أجل أيها السيد بديع . اسم على مسمى ولكن رفيقك من هو ، وأين هو ؟ ..

قال همساً :

– رفيقي شاعر كبير اسمه بهاء العواد . انه فيلسوف غارق في فلسفته حتى الأذنين . أتريدين مشاهدته ؟ تعالي معي .

وقادني الى الحديقة ، وكان بهاء جالساً تحت شجرة وارفة الظلال يكتب . فتقدمت منه ألقي عليه التحية .

ورفع نظره الكئيب إليّ وتمتم :

– أسعد الله صباحك يا اختي .

ولمست الحنين والحنان في صوته الناعم الهادىء كهدوءنسيم

الليل العليل .

وتقدمت منه أجلس قربه . واتمتم :

– شكراً على ما أبديتموه نحوي من عطف وحنان . انني لعاجزة عن ان أفيك جميلك ايها السيد بهاء .

قال بهاء : لا مجال للشكر ، ونحن لم نقدم على ما يستحق الشكر . لقد قمنا بالواجب المفروض يا سيدتي .

قلت : انني اعتذر على ما سببته لكم . لقد كنت اتنزه على جوادي فكبا بي الجواد وسقطت . ولو لم تنجدوني لكنت الآن بين عداد الاموات .

قال بهاء : نحن لم ننجدك يا سيدتي . الله ارسلنا لنجدتك . ليس هناك عمل يتم في هذه الحياة إلا بارادة الله . ولا هناك خطوة نخطوها إلا بمشيئته ، تبارك اسمه وتمجدت قدرته في الارض وفي السماء وفي ما وراء الارض والسماء .

ولامست كلماته اوتار قلبي .

إلا انني كنت في شغل عنه .

لقد كنت افكر في الطريق الذي سأسير فيه للوصول الى ثروته الطائلة الكبرى .

وكان بهاء العواد ينظر الى الأفق البعيد وهو يفكر .

بماذا كان يفكر ؟

لست أدري .

وصمت .

وصمت هو ايضاً .

وخيم الصمت على الحديقة .

ووقف بديع بعيداً عني يجمع الأزهار .

وطال تفكيرنا وصمتنا .

فلا بهاء تكلم ولا انا .

وبعد صمت طويل قلت لبهاء .

– لماذا تقيم في هذا القصر الفسيح الأرجـــاء ، البعيد عن المدينة في عزلة تامة ايها السيد بهاء ؟

ونظر بهاء الي ، وتمتم :

– ومن قال لكِ انني في عزلة ايتها الحسناء ؟ انا أعيش في سعادة وهناء واطمئنان . انا لست وحيداً في هذا القصر ، انني أعيش مع احلامي المجنحة وآمالي الوارفة . اعيش مع رفاقي ، رفاق روحي ، ومع ظلال ذاتي الخفية . اعيش مع حقيقتي ، ومع ماضي ومستقبلي ، مع كياني ، وأهوائي وضميري .

ولم أفهم ما يعنيه .

فعدت الى السؤال ، قل لي ، أليس هذا القصر هو لشيخ قصر الجماجم ؟

قال : أجل .

– وأين هو صاحب القصر ؟

قال : صاحب القصر رحل .

– الى أين ؟

– لست أدري . وهل تعلمين انت الى اين تذهبين ؟

قلت : وكيف انتقل القصر اليك ، هل اشتريته ؟

قال : لا ، لم أشتره ، بل هو اشتراني .

فابتسمت على هزء . ماذا يقول ، القصر اشتراه ؟

وسألته : أيشتري القصر الانسان ، ام يتصرف الجماد بالحي ؟

قال : الحي والجماد جناحان في هذه الارض . ليس للحياة ان تحلّق بسوى الاثنين . والحقيقة هي انك عندما تستأثرين بالجماد يكون الجماد قد استأثر بك ، وعندما تستولين على المادة تكون المادة قد اصبحت جزءاً من الروح .

قلت : لم افهم .

قال : ولا انا ايضاً . ولا احد يفهم الغرائب والعجائب والاسرار التي تكتنف الارض ومن وما على الارض .

قلت : ألا قل لي ، كيف انتقل هذا القصر اليك ؟

قال : بالوراثة . قيل ان عمي مات فانتقل ماله اليّ .

قلت : إذن انت غني جداً ؟!

قال : لا انا فقير . كنت غنياً واصبحت فقيراً .

– كيف ؟

- كنت غنياً قبل ان أرث عمي ، عندما كنت معدماً . واصبحت فقيراً بعد ان انتقل ميراثه إلي . والحقيقة ، الحقيقة هي انني اسعى لأعود الى غناي .

- كيف ؟

- عن طريق الفقر..الفقرهو الغنى ، اما الغنى فهو الفقر بذاته . الفقير الفقير في الحياة هو الذي لا يستطيع ان يجمع حبات الذهب من نور الشمس ، ولا عقود الفضة من ضياء القمر. والغني الغني هو من ينام، وينام قربه ضميره هادئاً صامتاً خاشعاً مطمئناً . الغني الغني في الحياة هو من لا بيت له ، لأن بيوت الناس كلها بيته . والغني من لا يحمل مالاً لأن اموال العالم كلها في يمينه . والغني هو من لا حقل ولا كرم ولا أرض له على هذه الفانية ، لان حقوله الشاسعة الواسعة وكرومه الغضة الخضراء وأرضه الطيبة المعطاء تنتظره هناك ما وراء الغيب .

قلت،وقد ايقنت انه غريب الاطوار : إذن انت لا تملك قرشاً واحداً ؟

قال : هي الحقيقة .

- ولكن يقال ان عمك كان من الاغنياء المعروفين .

قال . وهذه حقيقة ايضاً .

- وأين تكون إذن اموال عمك التي انتقلت اليك .

- ذهبت ، توارت ، اختفت ، انتقلت من جيبي الى جيب

غيري كما انتقلت من جيب عمي الى جيبي .

- اتكون اضعتها ؟

- لا بل ربحتها .

وكيف ذلك ؟

- سلفتها للرب ، فرقتها على المساكين . وغداً عندما تستحق ديوني سيعيدها الرب العادل القدير الغني ، خيرات وذهباً وفضة وجواهر لا تقدر بمال .

- كلها فرقتها على المساكين ؟

- كلها ..

- ومن أين تعيش إذن ؟

قال : يرزقني الله .

قلت : مسكين انت ايها السيد بهاء . لماذا لم تبقِ على شي من ثروتك لترد به الفاقة والفقر والجوع عنك ؟

فضحك ، وتمتم :

- أبقي شيئاً من ثروتي .. ولماذا ؟ لماذا نخزن الاموال في الصناديق ، لماذا نجمع الذهب ونسعى في أثره ؟ لماذا نحشد الدراهم كالجائعين للخبز وكالعطاش للماء ! ألنبقيها على هذه الارض لسوانا ؟

قلت : بل لنتمتع بها .

قال : القرش الذي نتمتع به هو ذلك الذي ننفق . أما الذي

ينام في صندوقنا فلن يستفيق إلا يوم موتنا .

وارتعشت ، وبهاء يذكر الموت .

وتمتمت : موتنا ، موتنا ؟

قال : أجل موتنا . الموت هـو الذي نبغي ونريد في هذه الحياة .. وليس المال . وكأني بالبشر يجمعون المال ويتسابقون اليه لينثروه حصى في قعر وادٍ سحيق . والويل كل الويل لمن لا يرى في حياته إلا المال.

وكان يتكلم دون ان ينظر اليّ .

لقد كانت عيناه عالقتين بالافق البعيد.

وكان صوته هادئاً ناعماً كنسيم الليل العليل .

وفي صوته نغمة عذبة تخترق اعماق القلوب .

وأدركت انني حيال إنسان عظيم .

وأحسست بشوق غريب الى سماع صوته وإلى النظر اميليه.

لقد شعرت أنني لست بغريبة عنه .

فكأنني اعرفه منذ أمد بعيد ، بعيد جداً .

ونهضت .

ونهض بهاء .

وسرنا معاً الى الحقول القريبة من القصر .

وعدت اروي لبهاء قصتي الملفقة ..

انا ابنة رجل غني جـــداً ، وكنت اتنزه فسقطت عن

الجواد .

والذي يملك الحقول والمزارع والكروم والبساتين الفساح .

وأنا مثقفة رصينة كاملة التهذيب .

أهلي قوم محافظون .

أما انا فمتحررة من عبودية الرجعية ...»

لقد كنت اتحدث اليه في حين كان ينظر اليّ ، وكأنه يعلم ان كل ما أقوله كذب ونفاق .

كانت عيناه تقولان لي :

— انت كاذبة يا رفقة .

ورحت ادرس كيفية الفتك به ، بعد ان تأكدت انه من الصعب إيقاعه في الشرك .

وكنت مضطربة ، هلعة ، خائفة .

فأنا لا أعلم ماذا دهاني .

وكنت استفيق في الليالي التائهة البعيدة لأبكي .

أبكي دون ان اعلم سبب بكائي .

وبدأت أحس بالحب يغمر روحي بصورة مخيفة مرعبة .

ترى هل أحبّ بهاء ؟

هذا هو السؤال الذي ألقيته على نفسي مراراً عديدة في اليوم .

من دون ان اجرؤ على ان أجيب روحي بصراحة .

وأقول لها : « نعم...»

لقد كنت اكابر واتمرد وأقول :«لا ، لا ، أنا لا أحبه . انني أضحك منه . ماذا دهاني ، هل جننت ؟.»

والآن ، الآن فقط علمت انه كان ثمة صراع هائل في اعماق روحي .

صراع الخير والشر .

كل منهما يريد الاستئثار بي ، والتغلب على الآخر .

ومضت أيام خمسة على وجودي في قصر وادي الجماجم قرب بهاء العواد .

وكنت أجلس متحدثة اليه فيزداد تعلقي به .

كان بهاء العواد دفقة من نور .

وغمرة من حنين ، وشوق ، وحنان .

وفي جلسة من جلساتنا قلت : بهاء ! . هل ستظل مقيماً في هذا القصر طويلاً ؟

لقد كنت اتمنى ان يرحل.

أن يبعد عني وعن شروري ، فينجو بنفسه مني ومن عصابتي .

لقد شعرت انني أخاف عليه من نفسي .

إلا ان بهاء قال :

– انا سأقضي ما بقي لي من عمري هنا ، هنا في هذا القصر

يا رفقة .

قلت : ولكن يقال ان هناك عصابة لصوص تعيث فساداً في هذه الربوع . الأفضل ان ترحل عن هذا القصر وتعود إلى المدينة .

فابتسم .

ان ابتسامته لا تزال تلوح لعيني . .

وتمتم : رفقة ! .. ليس للانسان ان يخاف من شيء ، لماذا الخوف ما دمنا لا نستطيع تجنب ما نخاف منه ؟ الانسان يخاف الموت . ولكن هل يستطيع ان يهرب من الموت ؟ . . وهو يخاف الظلام ، ولكن هل يتمكن من دفع الظلام واجتذاب النور ؟ . نحن هنا على هذه الارض الفانية لنتمم مشيئة الله . قولي في سرك دائماً وأبداً : « لتكن مشيئتك يا رب » ..

وحاولت ان أضحك من كلامه . .

إلا انني رأيتني مرغمة على ان اتمم كلماته : « لتكن مشيئتك يا رب » .

قلت : إذن انت لا تخاف الموت ؟ .

قال : لا أخاف شيئاً على هذه الارض ، ليس هنا على الارض ما يستحق الخوف يا رفقة .. ابداً ابداً ابداً .. ان الخوف هو الشبح الذي يغمر قلوبنا وأرواحنا ويبعدها عن الله ..

قلت : بهاء !. أنت !. انت !. لا أدري من أنت يا بهاء .

قال بهاء وهو ينظر الى الأفق البعيد :

— رفقة ! نظرة واحدة الى ما وراء الابدية كافية لأن تجعل من الانسان قلباً حنوناً وشعوراً مرهفاً"..رفقة !. أنت ستضحكين مني ، ستقولين : هذا مجنون ، هذا أبله ، ولكن سيأتي يوم تذكرين فيه ما أقوله وتدركين حقيقته .. سيأتي يوم تقولين فيه : مسكين بهاء ..

وبدأت الدموع تنهمر من عيني دون ان أعلم السبب .

وحاولت قهر دموعي ، ومنعها من الانحدار فما استطعت .

دموعي غلبتني .

لم تكن عيناي قد تعرفت الى الدمع منذ زمن بعيد .

منذ ان بدأت ادرك معنى الحياة .

وشعرت بموجة حنان ، وحنين ، وشوق ، واشتياق وهوى تغمر روحي ..

لقد أدركت في تلك الدقيقة ان رفقة ليست رفقة .

عندئذ ، وعندئذ فقط علمت ان الحب يفعل العجائب في قلوب البشر ..

وانني أحب هذا الفيلسوف الجالس قربي .

وتطلعت الى عينيه لأقول باسترحام :

— بهاء !. بهاء !. كفى ، لا تتكلم .انني. أقرأ روحك في عينيك .. دعني اقترب منك ، من روحك الحلوة الطاهرة

المقدسة . . لقد جعلت مني امرأة صالحة خلال الايام القليلة التي قضيتها قربك في هذا القصر يا بهاء .

فابتسم ابتسامته الحلوة الناعمة الهادئة ، وتمتم :

– رفقة ، هنيئاً للروح التي تجد شطرها الضائع على هـذه الأرض يا رفقة .

قلت :

– بهاء ! هـل تسمح لي ان أعيش قربك ، ان اشاطرك العيش في هذا القصر ؟

قال :

– رفقة ليس لي ان أسمح لك ، ولا ان امنع عنك ، وقد ارسلك الله الى هذا القصر دون ان يكون لي رأي ..أنتِ هنا سيدة القصر لك ان تأمري بما تريدين .

انه ليطلق يدي في قصره وفي أمواله .

لو قال بهاء العواد هذه الكلمات قبل أيام قليـلة لكنت استوليت على القصر وعلى كل ما في القصر .

اما الآن ، الآن بعد ان اهتدت روحي الضـالة الى الحقيقة فإنني لأشعر بكره شديد للمال والمادة .

أي قيمة لهـذه الأشياء إذا تحجر القلب ، وخسرت الروح نعمة الحب والطهر والنقاوة ؟

لقد جئت الى وادي الجماجم لأظفر بالثروة الطائلة ، وعندما

اصبحت الثروة بين يدي كفرت بها .

وهذه هي حال الانسان على الارض يا رفيقاتي . انه يسعى دائماً الى جمع المال على هذه الارض ، وعندما يصبح المال بين يديه يدرك الخطأ الذي ارتكبه في سعيه الى المال وجنوحه عن الخير .

لو أدرك الانسان حقيقته لما طلب من الرب شيئاً ، إلا الرب ..

وقد قال الناصري : «أطلبوا ملكوت الله وبرّه اولاً . أما ما بقي من أحتياجاتكم الارضية فهو يزاد لكم » .

ومسحت الراهبة رفقة دموعها وعادت الى الكلام لتقول لرفيقاتها الراهبات :

« وقلت لبهاء :

بهاء ! دعني أدخل الى قلبك ..

قال :

– ستدخلين الى قلبي يا رفقة ، ولكن ستدخلينه بالرب ، فالصالح الصالح في الحياة هو من يتحد بالاله في حبه وشوقه ، في نومه وفي يقظته ، في طعامه وفي شرابه ، وفي أعماله جمعاء ..

وعزمت على ان ابوح له بكل شيء

عزمت على ان أقول له : « انا رفقة رئيسة عصابة الموت »

وقد جئت الى هنا لأفتك بك .. اهرب مني اهرب مني » ..

قلت : بهاء أنا .. انا ..

وابتسم بهاء ..

وكانت ابتسامته أقرب الى الدمع منها الى الابتسام .

كانت نوراً ضئيلاً واهياً من خــــلال حجب الأسى والحزن والدمع .

وتمتم بهاء : أنت ؟ ومن أنت يا رفقة ؟

وكأنه كان يريد استدراجي للبوح بالحقيقة ..

وحاولت ان ابوح بكل شيء .

إلا ان لساني عُقد .

هل يجوز ان أطلع بهاء على حقيقتي ؟

لا ، لا مستحيل ، مستحيل ..

وقلقت ..

واضطربت ..

وقلت : أنا .. انا .. أنا رفقة .

وضحكت ..

وعاد بهاء الى الكلام ليقول : رفقة ؟ هنـــاك سر يعكر عليك صفو الحياة .. انا اشعر معك بالألم الذي تتألمين وبالحنين الذي تحنين . والألم يا رفقة من ضروريات الحياة .

وانحدرت الدموع على خدي غزيرة وتمتمت :

– اليوم ، اليوم فقط عرفت معنى الألم يا بهاء . اليوم .. وقد استمعت الى كلماتك الحلوة العذبة شعرت بالحنين يغمر روحي بنوره اللاهب المحرق الجميل .. لقد كنت اتألم دون ان أحس .. لم يكن للدموع طريق الى مقلتي ، ولا للجراح سبيل الى قلبي لأنني ..

وقاطعني بهاء : لانك كنت لا تستحقين ان تحسي بالألم وتشعري بالاوجاع وتتذوقي حلاوة الدموع . لأن الآلام والاوجاع من هبة السماء يا رفقة ، المتألم هنا يسعد هناك ، والباكي هنا يبتسم هناك ، والبائس هنا ينعم هناك بالراحة والطمأنينة والهناء .

قلت : ولكن هل يتحتم على الانسان ان يتألم هنا ليرتاح هناك ؟

قال : رفقة ! الألم انشودة عذبة النغمة تمر على الروح كما يمر النسيم على أغصان الأشجار ، واوراق الازهار ، يداعبها ولكن لا ليحطمها بل ليزيدها نمواً ويرفعها الى الاعالي ..

وأخذت افكر بما يقول بهاء ..

انه يدعو الى الآلام ..

الى سكب الدموع .

ترى هل يستطيع الانسان ان يروي عطشه للحياة وللموت بالدموع ؟

ولم أكن أعلم قيمة الدمع .

لم أكن اعلم ان الدمـــوع تطهر النفس ، وتغسل الروح ، وتنظفها من أثقال الجسد وعبء التراب .

ومضت الأيام مسرعـة ، وأنا اعيش في قصر الجماجم قرب بهاء ..

وفي كل يوم يمر كنت أشعر انني أزداد اقتراباً من بهـــاء العواد ..

لقد بدأت اشعر انه جزء مني .

ترى هل هذا هو الحب الذي يتحدثون عنه ؟

لست ادري .

كان يخيل لي انني أحب عشيقي خالداً رئيس العصابة .

أما بعد ان تعرفت الى بهاء.

بعد ان أحببته ، فقد أيقنت ان قلبي لم يختلج بعاطفة الحب نحو خالد ..

شعرت آنذاك ان ما كان بيني وبين خالد لم يكن حباً .

كان خطيئة ..

وجريمة ..

وفسقاً ..

وفجوراً ..

وشعرت بان الحب نعمة سماوية .

نعمة توثق بين روحين ، وتشدهما الى بعض فيصبحان روحاً واحدة .

وبدأت أحس بأنني أحب بهاء العواد .

اني احبه حباً هائلا مخيفاً .

حباً أقوى من الموت واعمق من الحياة .

كان بهاء العواد يعيش في روحي ، وفي قلبي ودمي .

وكنت ألمس السعادة التامة في العيش قربه .

وكم تمنيت ان اقضي حياتي كلها بين يديه .

لقد أشعل بهاء روحي وقلبي بنار المحبة الخالدة .

المحبة الروحية العميقـــة التي لا تتعرف الى توافه الجسد وسخافات الارض .

وكنت أقضي نهاري قرب بهـاء في الاحراج ، والوديان ، والتلال ، والجبال .

أما ليلي فكنت أقضيه ساهرة في غرفتي ، قرب غرفة بهاء في القصر ، أفكر بماضي وبحاضري وبمستقبلي .

وذات ليلة .. فيما أنا مستلقية على سريري أفكر ، فتح باب غرفتي على مهل .

واستويت في السرير أحدق بالباب ، وقد بدأ قلبي ينتفض للمفاجأة وإذا بعشيقي خالد ينتصب في باب الغرفة كالقـــدر ، كالثورة العاصفة المخيفة ..

وحاولت الصراخ ، وقد رأيت خالداً أمامي .

وأيقنت انه ما جاء إلا ليناقشني الحساب .

إلا ان خالداً وثب اليّ ممسكاً بيدي وواضعاً يده على فمي ليمنعني من الصراخ .

وهمس في أذني : الويل لك إذا استنجدتِ .

ثم توجه الى باب الغرفة فأوصده ، وعاد اليّ ليقول :

– رفقة ماذا فعلت ؟!

وظهر الاضطراب والقلق والخوف على وجهي ، وفي عينيّ وقلت :

– لم أفعل شيئاً .

قال : لقد مضت أسابيع عدة وأنتِ لم تنفـذي المهمة التي أتيتِ من أجلها الى هذا القصر . وكانت العصـابة قد حكمت عليك بالموت إلا ان حب خالد لك انقذك من تنفيذ الحكم .

قلت بوجل : ولكن من قال لكم انني لن أنفذ المهمة ؟ أنا ماضية في تنفيذها . بهاء العواد سيقع في غرامي وسأقوده اليكم كالنعجة الصاغرة ولكن اتركوا لي مجالاً للعمل .

فقهقه خالد وزأر : كاذبة .. كاذبة · بهاء العواد أوقعك في حبائله .. أنت تحبينه . لقد وصلتنا أخبارك يا مجرمة .

وحاولت الاعتراض .

حاولت الدفاع إلا ان خالداً رفع يده وانهـال عليّ بصفعة قوية .

وكدت أرد له الصفعة إلا انني خشيت نشوب معركة تثير

انتباه بديع وبهاء .

وتكون الفضيحة .

ووثبت الى خالد محاولة استعادة سيطرتي عليه ، وقلت له :

ـ خالد .. أخرج من هنا .. أخرج ، اسرع بالخروج ، لن تمضي أيام قليلة إلا ويكون بهاء قد وقع في الفخ .

إلا ان خالداً لم يرد على ما قلت ، واكتفى بقوله :

أخبارك وصلتني .. لقد جاءني انك عشقت بهاء يا رفقة ، جاءني انك متدلهة في غرامه . انني اهنئك بهذا الغرام الجديد .

قلت :

ـ مجنون . هذا جنون منك في الغيرة يا خالد . كل ما جاءك كذب ونفاق لا صحة له على الاطلاق .

قال خالد :

ـ إسمعي إذن . العصابة تطوق القصر الآن ، ومنصور يقف في البهو الخارجي ، وانا سأتوارى في الدهليز المؤدي الى الأقبية . خذي هذا الخنجر واغمديه في صدر بهاء فتبرهني لي وللعصابة انك وفية ، وتلحقين بنا . لديك عشر دقائق فقط .

وذعرت ..

ماذا يقول خالد ؟

ماذا يقول ؟

وحاولت الاعتراض ، وقلت:

ــ خالد ! . لم تكن هذه خطتنـا . الخطة التي رسمناهـا سأنفذها ، أخرج أخرج .

إلا ان خالداً لم يخرج.

بل جلس على السرير وأشعل لفافة . وتمتم :

ــ الويل كل الويل لك إذا لم تنفذي اوامري .

ورمى الخنجر امامي .

وخرج مسرعاً وهو يتمتم : عشر دقائق ، عشر دقائق . .

وأمسكت بالخنجر انظر اليه برعب .

يا ويلي ، يا ويلي .

ماذا افعل ، هل أنفذ أوامر خالد ؟

هل اغمد الخنجر في صدر بهاء؟

هل أقتل حبيبي ؟

مستحيل ، مستحيل .

وانصرفت الى التفكير .

ماذا عليّ ان أفعل ؟

إذا لم اقتل بهاء فالعصابة ستفتك بي .

وربما فتكت ببهاء ايضاً .

وطال تفكيري .

وكانت الدقائق تمر مسرعة .

ولاحت لي فكرة قريبة المنال .

سأنتحر ..

الموت افضل حل للمعضلة المعقدة ..

ورفعت الخنجر .

وأغمضت عينيّ .

واستسلمت للقدر .

وحاولت إغماد الخنجر في صدري .

إلا انني شعرت بالوهن :

شعرت بالخوف يداعب قلبي .

انها لساعة رهيبة ساعة الموت .

ولم يعد بيني وبين الساعة الفاصلة سوى لحظات قليلة .

عندما يخترق الخنجر الصدر وينفذ الى القلب تكون رفقة قد أصبحت في العالم الثاني .

وذعرت وانا أرى الموت امام عينيّ .

ولاحت لي الأبدية من خلال الموت مخيفة مروعة هائلة ..

وشعرت بيدي ترتجف .

وإذا بالخنجر يسقط من يدي .

ولم استطع الاستمرار في الوقوف .

فسقطت الى الأرض وأجهشت بالبكاء .

وسمع بهاء الراقد في الغرفة المجاورة بكائي فهب من نومه وأسرع اليّ على قلق .

وشاهدني ملقاة على الارض ، فانحـنى عليّ يرفعـني بيديه ويتمتم :

رفقة ! رفقة ! رفقة !.

ونظرت اليه هامسة :

- بهاء ! بهاء ! .

ووقع نظر بهاء على الخنجر الملقى قربي فانحنى يلتقطـه ، وينظر اليه ثم ينظر اليّ بأسف ويقول :

- إذن أنتِ عزمت على التنفيذ .

فدهشت .. وقلت :

- هل كنت تعرف ؟

قال : أجـل كنت أعرف كل شيء . كل شيء يا رفقـة .. أعرف انك لست ابنة مزارع غني .. انت عشيقة خالد رئيس العصابة .. منذ ان دخلت إلى القصر عرفت عنـك كل شيء . انت لم تحضري الى هنا إلا لتفتكي ببهاء يا رفقة .

قلت : تعرف كل هذا وتسمح لي بالاقامة هنـا .. معك في قصرك يا بهاء !.

قال : لم أكن اخاف منك على نفسي بل كنت اخاف منك على نفسك .

قلت : بهاء !. بهاء !. . أنت ملاك .

وارتميت على صدره اجهش بالبكاء ، واتمتم :

ــ حبيبي بهاء ، حبيبي بهاء ، حبيبي حبيبي .

وأمسكت بيده أشده الى غرفته واقول : حبيبي ، يجب ان تنام ، عد إلى غرفتك يا بهاء .

لقد حاولت إبعاده عن غرفتي قبل عودة خالد .

كنت على يقين من ان خالداً سيعود ليفتك بي وببهاء .

وقلت له : عد الى غرفتك ونم يا حبيبي .

قال : سننام طويلاً ، طويلاً جداً يا رفقة ، سيأتي يوم قريب ينام فيه بهاء النوم الأبدي . رفقة ، لقد قربت ساعة الرحيل . يخيل إليّ ان الموت أصبح قريباً مني .

وألقيت برأسي على صدره ، والدموع تنسكب من عينيّ .

وقلت : بهاء كفى ، كفى تجرح روحي يا بهاء . ستعيش عمراً طويلاً طويلاً جداً ، وستحيا رفقة معك ، تحنو عليك وتغسل جراح قلبك ، وتكفكف دموع روحك .

قال : رفقة ، خيال الموت يسبق حقيقتــه الى الانسان . وعندما يشاهد الانسان شبح الموت بعين خياله تكون حقيقة الموت قد أصبحت على مقربة منه ، فهو يشاهد الموت قبل ان يرى الموت بلحظات قليلة ويود لو تقدر له فرصة الحياة ليعود بها الى الوراء ، إلا ان الحياة تنفض يدها منه .

وهمست في أذنه :

ــ بهاء ، أنت روحي يا حبيبي .

وإذا بالباب يُفتح فجأة .

وينتصب خالد أمامنا ، والغضب يهزه هزاً .

لقد كان منظره مخيفاً مرعباً .

وأمسك بيدي يسلخني عن صدر بهاء ، ويصرخ بي :

« حبيبك يا شقية ؟ » .

ودفعني عنه .

وهجم على بهاء محاولاً الفتك به .

إلا ان بهاء حاول الدفاع عن نفسه .

وصرخت ، وقد أيقنت ان خالداً سيتغلب على بهاء :

بهاء ! بهاء ! . أهرب يا بهاء ، أهرب .

إلا ان بهاء لم يهرب .

وبدأت المعركة بينهما ، بين بهاء وخالد .

وسمع بديع الاصوات فاستفاق .

وأسرع الى غرفتي ، وما ان شاهد المعركة حتى ذعر .

وأخذ يرتجف .

وأطلق ساقيه للريح ، وهو يولول : الارواح ، الارواح ، لقد هاجمتنا الارواح الشريرة ، أنجدونا . »

وتلاشى صوت بديع رويداً رويداً مع اطياف الليل واشباحه ، وكان خالد وبهاء في معركة دامية

كان بهاء يحاول الدفاع عن نفسه ، لم يكن يرد لطمات خالد

وضرباته بالمثل .

وتمكن خالد من ان يلقي ببهاء فوق المقعد .

إلا ان بهاء رفسه برجله فتهادى خالد الى الوراء .

وحاول بهاء النهوض إلا ان خالداً كان قد استل خنجره المصقول وهجم على بهاء محاولاً إغماد الخنجر في صدره .

وجثم على صدر بهاء .

ورفع الخنجر .

إلا ان يد بهاء أمسكت بيد خالد .

وكان الخنجر يقترب من صدر بهاء رويداً رويداً .

واحترت في أمري .

وعبث الخوف بي .

عليّ ان ادافع عن بهاء .

عليّ ان أنقذ حبيبي .

والتفت حولي فوقع نظري على الخنجر ملقى على الارض .

انه الخنجر الذي سلمني إياه خالد لأغمده في صدر بهاء ، والذي حاولت الانتحار به .

وأسرعت الى الخنجر ألتقطه ، وأهجم على خالد الجاثم على صدر بهاء ، من الوراء ، وأغمد الخنجر في ظهره .

وذعر خالد .

وارتد إليّ محاولاً طعني بالخنجر .

إلا اني كنت أسرع منه فابتعدت عنه ورشقته بالخنجر من بعيد .

واستقر الخنجر في صدره .

بل في قلبه .

فتهادى ، ليقع على الارض وهو يزمجر :

– رفقة !.يا مجرمة .

وكانت هاتان الكلمتان آخر ما تلفظ به خالد قبل ان يموت .

وبدأ الدم يتدفق بغزارة من صدر خالد ومن ظهره .

ووقف بهاء قربي ينظر الى جثة خالد .

ثم يرفع نظره إليّ ليقول : رفقة .. ماذا فعلت يا رفقة ؟

قلت : قتلته .. هل أدعه يفتك بك ، ألا ادافع عنك ؟

قال :لا يا رفقة خيرلنا ان نُقتل من ان نقتل .

وأمسكت بيده اقول : هيا بنا .. أسرع ، يجب لن نهرب ، العصابة تطوق القصر وستهاجمنا وتفتك بنا إذا اكتشفت مقتل رئيسها .

وقبل ان نسير خطوة واحدة كان منصور ، اللص المخيف ،

يثب الينا مزمجراً : الانتقام لرئيسنا الانتقام !

وأدركت ان منصور سيفتك بي .

فهو مخلص لرئيسه كل الاخلاص .

وكان خالد يحب منصوراً ويعطف عليه .

ولم يخطىء ظني ، فقد شهر منصور مسدسه وصوبه إليّ من بعيد وهو يزأر : يا مجرمة ، يا مجرمة .

وصرخت به : منصور ! . لا يا منصور .

وشاهد بهاء فوهة المسدس مصوبة الى صدري ، فوثب يقف بيني وبين منصور .

وإذا بالرصاصة تنطلق لتستقر في صدر بهـــاء ، في صدر حبيبي . . .

وتهادى بهاء بين يدي .

وهوى الى الارض والدم يتدفق من صدره .

وتطلعت الى منصور أتمتم : « يا كافر قتلت حبيبي » .

إلا ان منصوراً كان قد ركن للفرار .

ووقعت أنا فوق جثة بهاء المخضبة بالدم اولول : بهاء !. بهاء بهاء .. حبيبي بهاء .. كلمني يا بهـاء ، انا حبيبتك رفقة ،

بهاء ! ... بهاء ..

إلا ان أذن بهاء لم تسمعني لأنه كان قد غادر هـذه الحياة ...»

ومسحت الراهبة الحزينة دموعها بمنديلها .

وأرسلت زفرة محرقة وهي تستعيد.. وأكملت :

« وعزمتُ على الانتقام . سأنتقم من العصابة بأسرها لدم بهاء . » .

ولملمت همتي محاولة استعادة قواي وسرت .

سرت على غير هدى الى أقرب مخفر للدرك أقول :

« انا عشيقة خالد رئيس عصابة الموت . قتلت عشيقي »

ورويت قصتي لرجال الأمن .

وإذا بفرزة من الجند تسرع الى وادي الجماجم ، الى قصري ، الى مقر العصابة .

وكنت أتقدمهم وأرشدهم الى مخابىء العصابة .

وفتحت أبواب الأقبية في قصري ليخرج منها المساجين وبينهم شيخ قصر الجماجم ، ورجل الأمن عادل البسام ، وبعض كبار الأغنياء الموسرين .

واعتقل جميع أفراد العصابة .

وصودرت الاموال ، والجواهر ، والحلي .

واكتُشف سر عصابة الموت .

ومثلنا جميعنا أمام القضاء .

وأنا ما زلت أذكر يوم وقف بديع شاهداً أمام القضاء يدل عليّ وأنا في قفص الاتهام ، ويقول .

– هذه هي الجنية التي وقعت عن ظهر جوادها أمام القصر ، فأسعفناها وأدخلناها الى القصر فاستمادت قواها وأقامت بيننا على أحسن حال ، وكانت تأكل وتشرب وإيانا ، وكانت تغني ، ولكنها كانت غريبة الأطوار ، فهي تضحـــك حيناً وتبكي احياناً .ولم أعرف انها جنية إلا عندما شاهدت معركة الأرواح في القصر التي انجلت عن مقتل أحد ملوك الجن وصديقي الحبيب بهاء .

وكانت اعترافات رجال العصابة في مصلحتي .

الكل يجزم انني لم ألطـــخ يدي بالدم ، وأنني لم أكن إلا عشيقة رئيسهم .

أما مقتل خالد فقــــد كان دفاعاً عن النفس ، لا سيما ان خنجره كان لا يزال في يده .

وحكم القضاء على أفراد العصابة بالسجن مدداً متراوحة بين عشرين سنة وثلاث سنوات

أما انا فقد كان نصيبي خمس سنين قضيتهـــا في السجن أبكي خطاياي وحبي وحبيبي .

ويوم خرجت من السجن ، أسرعت الى وادي الجماجم لأقف

لحظة على قبر بهاء .

وشاهدت على القبر ضمتين من ورود .

كتب على إحداها كلمة «بديع» وعلى الثانية كلمة «سلمى».

وعلمت من القرويين ان بديعاً وسلمى كانا يحضران في مطلع كل ربيع الى وادي الجماجم فيزوران قبر بهاء .

ويضعان فوقه ضمتين من ورود وزهور .

وركعت فوق القبر أصلي .

وأبكي ..

أبكي بكاءً مراً .

بكاء خارجاً من روحي لا من عينيّ .

وهمت على وجهي .

وسرت لا اعلم وجهة سيري .

الى ان وجدتني أمام هذا الدير .

وكادت الكلاب ، كلاب الدير تنهش لحمي محاولة الفتك بي.

وفُتح الباب ، باب الدير ، وخرجت منه الأم الرئيسة لتمد اليّ يدها وتدخلني الى هذا الدير .

ورويت للأم الرئيسة قصتي فأشفقت عليّ .

ووافقت على ان اعيش خادمة هنا .

وقبل ان تموت الأم الرئيسة أوصت خليفتهـــا بأن تقبلني راهبة بين الراهبات .

وقد سمعتها وهي تقول على فراش الاحتضـار : « ان رفقة جديرة بارتداء الثوب الأسود . فالله قادها الينا ، وعلينـــا ان نتمّم مشيئته الخالدة » .

الخاتمة

وعادت الراهبة رفقة الى سكب الدموع والى التفرس بالرسم الذي تحمله .

وقالت لها الراهبة شمونة : كفى بكاءً يا اختنا ، كفى تعذيباً لروحك .

قالت رفقة : ان جميع ما في العالم من دموع لا تستطيع ان تغسل خطاياي ، انني أبكي الشاب النبيل الذي كنت سبب موته وكان سبب توبتي وخلاص نفسي . وها انا احمل رسمه تذكاراً منه وإقراراً بفضله عليّ . لقد كان بهاء العواد نوراً أنار سبيلي وأرشدني الى طريق الخلاص ، ودمه كان غيثاً غسل اوساخ روحي وادران نفسي . وسأبكيه طيلة العمر علّ دموعي تمحو ذنوبي فيرحمني الله في الآخرة .

أما الآن فقد قارب الليل الانتصاف . فلنصلِ لراحة نفسه الطاهرة قبل انصرافنا الى النوم .

وركمن ..

وبدأن بالصلاة .

وإذا بالراهبة رفقة تنظر من خلال زجاج النافذة الى الغمام المنتشر في الفضاء لتستعيد نظرات بهاء ووجهه السابح في الغمام .

وتسمع من زمجرة العاصفة صوت بهاء يناديها من وراء الابدية: «رفقة !.. رفقة ! نظرة واحدة الى الموت كافية لأن تجعل من الانسان قلباً وشعوراً .. أنت ستضحكين مني ، ستقولين هذا مجنون ، هذا أبله ، ولكن سيأتي يوم تشتاقين فيه الى استماع كلماتي ، سيأتي يوم تقولين فيه مسكين بهاء . . . رفقة !.. رفقة !.. رفقة .. »

* *

وأغمضت الراهبة رفقة عينيها وبدأت الدموع تنهمر على

وجنتيها ، وهي جاثية على ركبتيها تضم صورة بهاء الى قلبها ، وتمتمت :

« يا ربّ ، يا إله السماء والارض ، يا ارحم الراحمين . إرحمني ، اغفر لي آثامي وخطاياي ، وارحم بهاء » ..

قصة القصة

هذه القصة كتبها بيار روفايل مسرحية عام ١٩٥٧ باسم « رفقة » ..

وقد مثلت مسرحية « رفقة » على مسارح المدن والقرى اللبنانية مرات عدة .

ثم كتبها قصة نشرت عام ١٩٦٦ ، واعيد طبعها أربع مرات .

وهي الآن بين ايدي القراء في طبعتها الخامسة .

الامل الصريع

الامل الزاهر الزاهي الجميل الذي تنتظره كل عذراء ..

الحلم الذي يتراءى على افترار واخضرار لكل فتاة ..

الامل الخضل الجناح ، والحلم الوارف المفيء ..

الامل يصبح سرابا ..

والحلم ينقشع عن الحقيقة الدامية المؤلمة ..

انه « الامل الصريع » ..

اروع ما كتب بيار روفايل ..

مؤلفات الاستاذ بيار روفايل
القصص العاطفية

الأرض العذراء
الأمل الصريع
انا خاطئة
بين نارين
حسناء بغداد
خبز ودمع
خذ قلبي ودعني
دموع الأرز ٢/١
دموع العذارى
دموع لا تجف
زنبقة في الوحول

سر الراهبة
صرخة الاستقلال
صقر الصحراء
ضاع عمري
طريق الدموع
ظلمتني يا قلب
غادة دمشق
في مهب الرياح
القلب الأخضر
لا تلمني
لن يعود

ماذا فعلت بقلبي
معقل النسور ١/٢
ملائكة في الجحيم
من اجل عينيك

نار في الجنوب
هل تذكرين
وحدي مع الليل.

تطلب من دار الجيل